٥ — دفاتر الفلسفة

ثيودور اويزرمان

الفلسفة الماركسية

جذورها وماهيتها

ترجمة عبد السلام رضوان

سلسلة العلوم الاجتماعية

الفارابي

ثيودوراويزرمان

الفلسفة الماركسية

جذورها وماهيتها

ترجمة عبدالسلام رضوان

١٩٨١

مقدمة الكتاب
في المعنى التاريخي للفلسفة الماركسية

لماذا الفلسفة الماركسية؟
ولماذا يتسع نفوذها ويمتد يوماً بعد يوم؟

سؤال لا يطرحه من يمارس الفلسفة الماركسية، لأنه يجد الإجابة في ممارسته. يجد الإجابة في الممارسة وفي الوضع الطبقي للنظرية الماركسية، من حيث هي السلاح النظري لطرف ضد طرف آخر نقيض. فالماركسية هي نظرياً وعملياً السلاح النظري لحزب الطبقة العاملة ولكل القوى السياسية المناضلة في سبيل الحرية والاستقلال والتقدم الاجتماعي.

مع ذلك، فعندما يُسائل اعداء الماركسية الماركسية، فإن إجابتهم أو إجاباتهم تضل السبيل في الوهم الأيديولوجي الطبقي، وتتيه في أسراب الوهم وقيود الملكية الخاصة. وترتدُّ إلى زمن مضى، ويمضي، باحثة عن جواب مستقيم، دون أن تدري أن هذا «الزمن» لن يعود بفضل النضال الدؤوب لحزب الطبقة العاملة المسلح بالماركسية كمنهج نظر وأداة فعل وتغيير.

وإذا كان أعداء الماركسية يبحثون عن إجابتهم في الوهم، فإن المدافعين عنها يجدون الجواب صحيحاً في المعنى النظري والتاريخي للفلسفة الماركسية، أي يجدون الجواب في شكل ولادة الماركسية، وفي زمان تكوُّنها، وفي مسارها الذي يتجدَّد أبداً في ممارسات الطبقة العاملة وأحزابها الشيوعية.

ولدت الماركسية في لحظتها التاريخية، في زمن صعود الرأسمالية وصعود تناقضاتها وصعود الطبقة العاملة كقوة جديدة على مسرح التاريخ الكوني. وإذا كان صعود الرأسمالية قد شكل تاريخياً مرحلة متقدمة في التاريخ الإنساني، فإن هذا التقدم لم يحرر الإنسان من الاستغلال بل دفع هذا الاستغلال إلى حدوده الأكثر قسوة ووحشية. لقد أدى ظهور الرأسمالية إلى

القضاء على النظام الاقطاعي. وأدخل المجتمع في الثورة الصناعية، ودفع التايز الطبقي إلى حدوده القصوى، وفي هذا التايز أصبحت حركة المجتمع محكومة بصراع طبقي لا هوادة فيه بين البروليتاريا والبرجوازية.

في هـذا الحقـل المتايز طبقياً، والمحكوم بصراع الطبقـة العاملـة والبرجوازية. كان على الطبقة العاملة أن تجد المنهج الشامل الذي ينير مـار نضالها، ويدفعها إلى سبيل النضال الواضح والمحدد، وجاءت الماركسية لتكون هذا المنهج، أي جاءت كإطار نظري للممارسة السياسية للطبقة العاملة.

لقد شكّل لقاء الطبقة العاملة بالفلسفة الماركسية حدثاً كونياً بالغ الأهمية، فلأول مرة في التاريخ تحارب القوى المستغلة والمضطهدة مزوّدة بمنهج علمي يقودها إلى النصر. بل يمكن القول إن الدلالة التاريخية لظهور الفلسفة الماركسية هو ظهورها كنظرية مرتبطة بطبقة، أو ظهورها كفلسفة طبقة: فلسفة تجد معناها وإمكانية تحققها في البروليتاريا، وطبقة تجد دليل نضالها في فلسفة جديدة. من هنا فإن العلاقة بين الماركسية والطبقة العاملة هي علاقة تكافل وتأثير متبادل، بحيث يستحيل الفصل بينهما دون أن يؤدي ذلك إلى انتهاء دلالتها التاريخية.

إن شكل العلاقة بين الماركسية والطبقة العاملة، يقود إلى نتيجة أساسية: لم تهبط الماركسية من سماء الفكر، ولم تتكوَّن كحزمة أفكار بعيدة عن الواقع والتاريخ،بل ولدت كمعادل نظري للممارسة السياسية للطبقة العاملة التي تكوَّنت في حقل النظام الرأسمالي، أي أن اللحظة التاريخية لظهور الفلسفة الماركسية جاءت متوافقة مع ظهور الطبقة الاجتماعية التي ترى في هذه الفلسفة سلاحها النظري. في هذا التوافق التاريخي، وفي ارتباط النظرية الماركسية بموضوعها، تتجلى السمة العلمية للنظرية الماركسية من حيث هي تعبير نظري لواقع تاريخي محدد.

إذا كان توافق ظهور الماركسية مع ظهور الطبقة العاملة يشكّل السمة الأولى لهذه الفلسفة، فإن السمة الثانية تتكشَّف بارتباط النظرية بموضوعها. فالماركسية تكونت، وتتكون، كتجريد نظري لموضوع محدد يعلن عن نفسه في ممارسات الطبقة العاملة ونضالها من أجل الحرية والتحرر، أي في نضالها من أجل هدم علاقات الإنتاج الرأسمالية ومن أجل بناء نظام اشتراكي ينتج

علاقات اجتماعية جديدة.

مع ذلك، فإن صحة النظرية الماركسية على المستويين النظري والعلمي، لا تستقيم إلا إذا أجبنا على سؤال ضروري: كيف استطاعت النظرية الماركسية أن تكون الجواب الصحيح على أسئلة زمانها، أي كيف تكوَّنت كنظرية للطبقة العاملة؟

لا نعثر على الإجابة هنا في اللحظة التاريخية لظهور النظرية الماركسية فحسب. بل نعثر على هذه الإجابة أيضاً في التركيب النظري لها. فالماركسية لم تنشأ خارج مسار التطور الإنساني. ولم تجب عن أسئلة هجينة وغريبة، بل ولدت في المسار الإنساني بعد أن توفرت شروط معينة، وأجابت عن أسئلة كان العلم و« الإنسان » قد طرحها دون أن يعثر على الإجابة. إن ماركس وانجلس ولينين لم يستطيعوا الإجابة على أسئلة العصر، وأسئلة تحرر الطبقة العاملة وانتقال البشرية من الرأسمالية إلى الاشتراكية، إلا بعد أن تمثَّلوا كل ما هو إيجابي في التراث العلمي الإنساني، بعد أن أخضعوه لقراءة نقدية. وقاموا باستعماله بشكل جديد في بناء نظرية جديدة.. قد أشار لينين إلى هذه الحقيقة في كتابه « مصادر الماركسية »، حينما ألقى الضوء على دور الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، والاقتصاد السياسي الكلاسيكي، الإشتراكية الطوباوية، في تشكيل النظرية الماركسية وظهورها. وهذا يعني أن ماركس وانجلس لم يعثرا على النظرية في الممارسة المباشرة للطبقة العاملة، إلا بعد أن تملكوا تراث الإنسانية العلمي، وأعادوا قراءته وصياغته، ثم عادوا فطبَّقوه بشكل خلاق على نمط الانتاج الرأسمالي. مع ذلك فالنظرية الماركسية لم تبق في حدودها الأولى، لم تراوح، لسبب بسيط، هو ارتباطها العضوي بنضالات الطبقة العاملة. إن تجدد هذه النضالات في تعدُّدها وتمايزها، يطرح باستمرار أسئلة جديدة على النظرية الماركسية. أي يجدِّد هذه النظرية في بحثها عن إجابات الأسئلة الجديدة. وإذا علمنا أن النظرية الماركسية تعطي الأولوية للممارسة في علاقتها مع النظرية، وإذا علمنا أيضاً أن الممارسة متجددة أبداً، فمعنى ذلك أن الماركسية تحمل في منطقها الداخلي أسباب تجدُّدها وتطورها، وارتباطها العضوي والدائم بنضال قوى الثورة والتقدم من أجل مجتمع جديد. وبسبب هذا الارتباط تحافظ الماركسية على دلالتها التاريخية: نظرية

ثورية تجيب عن أسئلة زمانها، وفي هذه الإجابة تدفع باستمرار إلى الثورة والتحرر.

الناشر

مقدمة

عندما ارسى ماركس وانجلس أسس مذهبهما، منذ ما يزيد على مئة عام، لم يكن يدرك سوى القليل من الناس امكاناته المستقبلة. فقد زعم برونوباور، المفكر البرجوازي الراديكالي المعروف، خلال أربعينيات القرن الماضي، أن ماركس صاغ نظرته للبروليتاريا «على نحو غير نقدي»، وأنه غالى في تقدير أهمية هذه الطبقة بل والأكثر من ذلك أنه ألهها

لقد اكتشف ماركس وانجلس بالفعل، في البروليتاريا، قوة قادرة على النضال ضد الاضطهاد الاجتماعي بأكثر الأساليب اتساقا وفعالية. لكنهما أكدا أيضاً أنهما لا يؤلهان البروليتاريا ولا ينسبان اليها قوى فائقة للطبيعة. بل تمثل تصورهما في أنه « بما أن شروط حياة البروليتاريا تحمل في داخلها كافة شروط الحياة في المجتمع اليوم بكل ما تنطوي عليه من لا انسانية، وبما أن الانسان البروليتاري قد فقد نفسه، ومع ذلك فانه لم يكتسب، في الوقت ذاته، الوعي النظري بهذا الفقدان فحسب، وانما يجد نفسه أيضا مدفوعاً على نحو مباشر (من خلال «الحاجة» الملحة والتي لم تعد قابلة للاخفاء بل أصبحت الزامية بصورة مطلقة - وفي ذلك يتمثل التعبير العلمي عن «الضرورة») الى أن يثور ضد هذا الواقع اللاانساني، وهو ما يؤدي بنا الى القول بأن البروليتاريا يمكنها ويتعين عليها أن تحرر نفسها»[1]

الا أن البروليتاريا لا يمكنها أن تحرر نفسها دون أن تقوض الأسس الاقتصادية التي يقوم عليها المجتمع الرأسمالي، أي دون أن تتخلص من الملكية

(١) K. Marx and F. Engels, the holy family or critique of critical critique, Moscow, 1956, P. 52

الخاصة لوسائل الانتاج والمنافسة الرأسمالية والاستغلال وفوضى الانتاج. لهذا السبب يصبح التحرير الاجتماعي للطبقة العاملة تحريرا اجتماعيا لكل الطبقات المنتجة، لكل المستغلين والمضطهدين. لقد توصل ماركس وانجلس الى هذا الاستنتاج حول الرسالة التاريخية الحاسمة للبروليتاريا منذ أكثر من مئة وعشرين عاما ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الاشتراكية العلمية (التي كانت في البداية أحد الاتجاهات الناشئة - جنبا الى جنب مع النظريات الاشتراكية الطوباوية - في تيار الحركة البروليتارية) أصبحت تحتل الموقع القيادي في حركة تحرر الطبقة العاملة والجماهير العاملة غير البروليتارية.

لقد أصبحت تعاليم ماركس وانجلس، بعد أن أثرتها التجربة التاريخية الجديدة في كتابات لينين، هي الراية الأيديولوجية لأول ثورة اشتراكية في العالم والتي قامت في روسيا عام ١٩١٧ وترى شعوب البلدان الاشتراكية في الماركسية اللينينية العلم الذي تسترشد به في بناء العالم الجديد.

ان قوة تأثير الأفكار الماركسية اللينينية تبلغ حدا من العظمة حتى أن أعداءها أنفسهم يحسبون حسابها. واللافت للنظر في هذا الصدد الكتاب الذي ألفه جون فوستر دالاس، أحد زعماء البرجوازية الامبريالية البارزين، بعنوان «حرب أم سلام». فحتى يومنا الراهن يمثل هذا الكتاب «انجيل» قسم كبير من أيديولوجي الرأسمالية المعاصرة، خاصة في أمريكا. وفي هذا الكتاب يلاحظ دالاس أول ما يلاحظ أن الماركسية اللينينية «تأسر خيال الملايين والملايين من البشر»[٢] ويؤكد دالاس أن برنامج التحولات الاجتماعية الذي تمت صياغته في الاتحاد السوفييتي ينطوي على قوة جذب وتأثير هائلة بالنسبة لهؤلاء الذين يعتبرون أنفسهم مضطهدين أو مخدوعين وكذلك بالنسبة لأصحاب الميول المثالية الذين يريدون أن يصلحوا العالم.

ولكن فلندع جانبا تحفظ دالاس حول هؤلاء الذين «يعتبرون انفسهم» مضطهدين ومخدوعين في ظل الرأسمالية، وحول أصحاب الميول «المثالية». فمن الواضح أنه شخصيا لا ينتمي الى أي من هاتين المجموعتين. فلقد كان مقتنعا تماماً بالوضع القائم، ولم يكن يضايقه سوى أن الرأسمالية تواجه صعوبات معينة في المنافسة بينها وبين الاشتراكية. وقد فسر هذه الحقيقة من خلال تفوق

(٢) دالاس، حرب ام سلام، نيويورك، ١٩٥٠، ص ١٦٩.

الأيديولوجية الشيوعية على الأيديولوجية الرأسمالية. ولم يكن تفسيره كاملاً ولا كافياً لأن المسألة الأساسية لا تتعلق بالأيديولوجية وانما تتعلق بتفوق الاقتصاد الاشتراكي المخطط على أسلوب الانتاج الرأسمالي. الا أن هذا التفسير انطوى على عنصر من الحقيقة هو إن أفكار الاشتراكية، أو الأيديولوجية الاشتراكية العلمية، تأسر لب الملايين. ولقد لاحظ دالاس في كتابه أن «الولايات المتحدة أنفقت بلايين الدولارات خلال السنوات الخمس الأخيرة تأهبا لحرب قنابل وطائرات وبنادق محتملة، الا أننا لم ننفق سوى القليل على حرب الأفكار التي اشتبكنا فيها اشتباكا شديداً والتي نعاني فيها ارتدادات لا يمكن استئصالها بأي كمية من القوة العسكرية»(٣)

وكرجل أعمال حقيقي اعتقد دالاس أن من الممكن، بفضل مساعدة الدولار الكلي القدرة، أن يستنبط ايماناً دينامياً وسلمياً، ذلك الايمان الذي استشعر أنه لن يوجد شيء آخر في غيابه يمكن الركون اليه. فالمجتمع الأمريكي، كما يلاحظ دالاس في هذا الصدد، يفتقر الى الايمان بالمستقبل، أي الايمان بالرأسمالية. وهو يطالب زعماء الرأسمالية أن يصوغوا حججا أيديولوجية جديدة يمكن أن تجتذب الجماهير، وأن تجدد الأيديولوجية البرجوازية، وتجعلها تواكب العصر الراهن بصورة أكثر اتساقا.

وفي ختام كتابه يذهب دالاس الى أنه من الضروري أن نكتشف الكلمات التي يمكن أن نتوجه بها الى الناس «فان تكتشف هذه الرسالة، فتلك مهمة الزعماء الروحيين لأمتنا أولا وأخيرا»(٤). والآن فلنر ما يذهب اليه منظرو البرجوازية. في كتابه «الماركسية والوجودية والنزعة الشخصية» يقول ج. لاكروا، الفيلسوف الفرنسي الشهير «تعيش الماركسية في قلوب وعقول الملايين من البشر وهي تعد أكثر الحركات الاجتماعية في عصرنا أهمية»(٥). ويؤيده في ذلك ج. كالفيز، الناقد الكاثوليكي المعروف لكتابات ماركس: «هل يوجد بين معاصرينا من لم تستثره الماركسية ولم تشكل بالنسبة اليه تحدياً خطيراً»(٦)

(٣) دالاس، حرب أم سلام، نيويورك، ١٩٥٠، ص ٢٤٩
(٤) المرجع السابق، ص ٢٦١
(٥) J. Larcroix marxisme, existentialisme, personnalisme, Paris, 1959, P. 5.
(٦) J. Calves, la pensee de Karl Marx, Paris, 1956, P.13.

ويؤكد خصوم الماركسية باستمرار، خلال اقرارهم بقوة التأثير الهائلة للماركسية، أنها تهدد وجود النظام الرأسمالي. وهم يدعون الى التصعيد الشديد للنضال ضد الأيديولوجية الاشتراكية العلمية، الا أنهم يضطرون في الوقت ذاته الى الاعتراف بأن الماركسية تؤثر، بفضل طبيعتها العلمية، حتى فيهم هم أنفسهم وهم خصومها ومن الأمثلة المطابقة، في هذا الصدد، ما يقربه كارل بوبر الأستاذ بجامعة لندن، والذي يعترف، في الوقت الذي يهاجم فيه التفسير الماركسي المادي للتاريخ والنتائج المترتبة عليه، يعترف بأن الماركسية تحتل مرتبة أعلى من كل النظريات الاجتماعية السابقة. وهو يذهب الى أن «العودة الى العلم الاجتماعي السابق على الماركسية تعد أمراً غير مقبول. فكل الكتاب المحدثين مدينين لماركس، حتى لو لم يعرفوه»(٧)

ان خصوم الماركسية لا يهتمون أساساً بملاحظة نمو تأثير الأفكار الماركسية، الا أنهم يحاولون أن يتبينوا المصدر الذي ينشأ عنه هذا التأثير وماهية العوامل التي تساعد على انتشار هذا التأثير.

ويقدم «و.سكلام»، وهو عضو في جمعية جون بيرش، تفسيرا يثير الاهتمام للتأثير المتنامي للماركسية. و.سكلام هو مؤلف كتاب «حدود المعجز» الذي سماه المعجبون به «انجيل معاداة الشيوعية». ان جوهر الماركسية، في رأيه، لا ينبغي أن نبحث عنه في كتابات مؤسّسيها وأتباعهم، بل في «البدعة البروميثيوسية» التي تطورت عبر تاريخ الانسان، أي في سعي الانسان المتواصل لاخضاع قوى الطبيعة ولكي يصبح سيدا للطبيعة ولحياته الشخصية. وبطبيعة الحال فان هذا السعي الدؤوب يفترض قناعة تامة بالامكانات غير المحدودة التي ينطوي عليها مستقبل العلم والعقل والتكنولوجيا. وتلك، في رأي سكلام، هي الخطيئة الأزلية (حقاً أنها ليست الخطيئة الأولى!) للانسان. ولكن أي خطيئة في رغبة الانسان أن يسيطر على الطبيعة وعلى ذاته؟ فتلك الرغبة لا تنفصل، في النهاية، عن تطور القوى المنتجة والثورة العلمية والتكنولوجية لعصرنا. وسكلام يعترف بذلك، الا أن هذا التقدم هو الذي يرعبه: «ان الشيوعية هي المرحلة الأعلى من تراكم طموحات الانسان البروميثيوسي الذي

(٧) K Popper, the open society and its enemies, London, 1959, Vol. 2, P.82.

يتحرش بالعالم كله ويرغب في خلقه من جديد »[٨]

وقد يبدو من قبيل المفارقة، أن يلاحظ سكلام المعادي للشيوعية تلك الملاحظة الصائبة والقائلة بأن المثال الشيوعي، الذي جسدته الماركسية علميا، يرتبط بالتقدم المستمر للقوى المنتجة على امتداد تاريخ الحضارة. ويصيب سكلام الحقيقة تماما حين يلاحظ أن الشيوعية مؤشرا مشتركا للطموحات البروميثيوسية التي ظلت طوال القرون الماضية تؤرق الأعصاب المجهدة والكبرياء الذي لا يرتوي للبشر »[٩]

ومن البديهي بطبيعة الحال ألا يتوصل كل أعداء الماركسية الى النتائج التي توصل إليها سكلام. فبعضهم يحاول أن يثبت أن الاشتراكية لا تستفيد وحدها من تطور القوى المنتجة بل والرأسمالية كذلك. على سبيل المثال، رأي « شنكه » المعلق الألماني، الذي يختلف بشدة مع سكلام، ويستنكر ما يقوله الأخير حول استفادة الشيوعية ومكتسباتها من تطور العلم والتكنولوجيا ويجتهد شنكه من أجل تفسير التأثير الواسع للأفكار الماركسية من خلال عوامل أخرى، لا تقل غرابة. يقول شنكه « طوال أكثر من مائة عام، ظلت الماركسية صوتاً للضمير حال دون أن ينغمس العالم الرأسمالي الغربي نهائياً في مستنقع الأنانية الالحادية التي تحط من قدر الانسان. ان الماركسية هي القوة التي أيقظ قدومها الضمير وحال دونه ودون السقوط في نعاس ثقيل »[١٠]

وهكذا، فالماركسية هي صوت الضمير، ويمكن لنا أن نضيف أيضاً: أنها صوت العقل.

الا أن شنكه، باقراره بالتأثير الهائل للماركسية، لا يقدم أية اجابة فيما يتعلق بأسباب هذا التأثير. وذلك أمر مفهوم. فخصوم الماركسية لا يستطيعون أن يتقبلوا الاقرار بالحقائق الواضحة، انهم لا يرغبون على الاطلاق في أن يدرسوا على نحو موضوعي وعلمي، المحتوى الحقيقي للماركسية، وموقفها من المذاهب السابقة عليها، ومن الواقع الاجتماعي المعاصر.

ان قوة الماركسية - - وهو ما سنحاول أن نثبته في دراستنا هذه - تكمن

(٨) W Schlamm, der grenzen des wunders, 1959, P. 189.
(٩) Ibid., P. 190.
(١٠) W. Schenke, der anti-schlamm oder wie begegent man dem kommunismus Hamburg, 1959, P.50.

أساساً في طبيعتها العلمية الاصيلة، وفي ارتباطها الذي لا ينفصم بالحياة، وبالمصالح الأساسية للبشر، وبتطور القوى المنتجة ومجمل الثقافة الانسانية، ارتباطها بالقضايا الحيوية الملحة لعصرنا الراهن. ولكي ندرك ذلك جيداً يتعين علينا أن نبدأ أولا بدراسة الجذور التاريخية للماركسية وسوابقها المادية والروحية. كذلك سيتعين علينا، فضلا عن ذلك، أن نحلل تبلور مذهب ماركس وانجلس، وأن نحلل العناصر الأساسية المكونة للماركسية (الفلسفة، الاقتصاد السياسي، الاشتراكية العلمية) وتطورها وتطبيقها في شروط العصر الراهن. والدراسة التالية هي عرض موجز لهذه النقاط الرئيسية.

الفصل الأول
ظهور الماركسية: ضرورة تاريخية موضوعية

لماذا ظهرت الماركسية قرب نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر؟ وهل كان ممكناً أن تظهر قبل ذلك التاريخ بمئة أو مئة وخمسين عاما؟

لقد قيل أنه لو لم يكتب شكسبير رائعته « هاملت »، لما امتلكت الانسانية هذه التراجيديا العظيمة. ومن الممكن للمرء أن يتفق مع هذا القول، رغم أن علينا أن نلاحظ أن « هاملت » لم يكن من الممكن كتابتها الا في حقبة تاريخية معينة وفي بلد بعينه. فهنا، وفي حدود معينة، يتواجد موقف تاريخي مستقل تماماً عن فكر وعن ارادة المؤلف العبقري الذي أبدع « هاملت ». أما في حالة العلم فإننا نجد الأمر يختلف كثيرا فلو أن اسحق نيوتن لم يكتشف القوانين الأساسية للميكانيكا الكلاسيكية، لكانت قد اكتشفت على يد عالم بارز آخر أو على يد مجموعة من العلماء في الفترة نفسها تقريباً.

وبمتابعة هذا المنحى في التفكير يمكن لنا الآن أن نصوغ سؤالنا على النحو التالي: لو أن ماركس وأنجلس لم يبدعا مذهبها لسبب أو لآخر، هل كان ممكناً أن يبدعه مفكر بارز آخر؟ ان منطق التاريخ يدفعنا الى الاجابة بالايجاب.

ولكن ما هي الأحداث التاريخية الرئيسية التي مهدت موضوعيا لظهور الماركسية؟

المتطلبات الاجتماعية الاقتصادية الأساسية لظهور الماركسية

شهد المجتمع الرأسمالي قبل ظهور الماركسية مرحلة طويلة من التطور بدأت منذ أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر. ففي البداية تطورت الرأسمالية داخل حدود العلاقات الاجتماعية الاقطاعية. وبالتالي فقد عاقت هذه الحدود نمو المجتمع البرجوازي الناشيء. وعند نهاية القرن السادس عشر لم تطح الثورة التي وقعت في هولندا بسيطرة أسبانيا الكاثوليكية الاقطاعية على هولندا البروتستانتية فحسب، بل أفسحت الطريق أيضاً أمام التطور الرأسمالي الحر لهذا البلد البرجوازي النموذجي في تلك الأيام. على أن الثورة البرجوازية الانجليزية عام ١٩٤٨ انطوت على أهمية أبعد أثرا بالنسبة لتطور الرأسمالية في أوروبا ولقد اتخذت أيديولوجية هذه الثورة طابعاً دينياً واضحاً وصريحاً. الا أن مملكة الله التي كان البيوريتانيون الانجليز يأملون في تأسيسها لم تكن شيئاً آخر غير المجتمع البرجوازي وقد أضفي عليه المظهر المثالي.

ثم كانت الثورة الفرنسية الكبرى (عام ١٧٨٩)، أكبر الثورات البرجوازية الأوروبية، والتي بلغ الصراع بين البرجوازية وبين العناصر الاقطاعية الحاكمة - في مجرى أحداثها - احتداما سياسيا لم يسبق له مثيل. ودشن انتصار البرجوازية الفرنسية المسيرة المنتصرة للرأسمالية في كل أنحاء القارة الأوروبية. واستشعرت معظم الشعوب الأثر التحريري للثورة الفرنسية الكبرى.

وكانت الثورة الصناعية (في نهاية القرن الثامن عشر في انجلترا، وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر في فرنسا) هي النتيجة الاقتصادية الأساسية للاطاحة الثورية بالاقطاع في كلا البلدين. وأدت الثورة الصناعية الى حدوث نمو هائل في الانتاج المادي وفي انتاجية العمل المأجور. وقد أكد ماركس وانجلس دائماً الدور

التاريخي التقدمي للبرجوازية في تلك الحقبة: فخلال مئة عام، على حد قولها، خلقت البرجوازية قوى انتاجية تفوق كل ما أنجزته الأجيال السابقة مجتمعة، وفي الفترة من عام ١٨٣٠ الى عام ١٨٤٧ ازداد عدد المحركات البخارية في فرنسا من ٦٢٥ الى ٤٨٥٣، وارتفع حجم المنتج من الفحم من ٠٠٠ ،٧٦٠ ،١ الى ٠٠٠ ،١٥٣ ،٥ طن كما تضاعف حجم انتاج الحديد والصلب ثلاث مرات تقريبا الا أن هذه الزيادة الهائلة في الانتاج وانتاجية العمل والثروة الاجتماعية لم يصاحبها أي تحسن ملموس في الشروط المادية للجماهير وكانت السمة المميزة للواقع الاجتماعي للرأسمالية - وهي سمة اشتركت فيها كل المجتمعات الرأسمالية القائمة في ذلك الوقت - هي تراكم الثروة لدى فرد معين وتراكم الفقر عند الآخر، وفوضى الانتاج، وتدهور أحوال صغار المنتجين، والاستغلال السافر للعمال (بما في ذلك الصبية الصغار وخاصة لعدم وجود قوانين مقيدة في حالتهم)، وشروط الايواء المزرية، والغرامات الشديدة القسوة وكافة أشكال الاضطهاد الأخرى. وهكذا انتقلت التناقضات بين البروليتاريا والبرجوازية لتحتل موقع الصدارة في الحياة السياسية.

وأخذ العمال، الذين ساعدوا البرجوازية وساندوها في قتالها ضد السلطة الاقطاعية خلال القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، يتحققون بالتدريج من التعارض الكامل والمباشر بين مصالحهم ومصالح الرأسماليين. ومنذ أواخر القرن الثامن عشر بدأ العمال الانجليز يعلنون الاضراب، مطالبين بيوم عمل أقصر وأجور أعلى. وفي عام ١٨١٩، أمرت الحكومة البريطانية البوليس أن يطلق النار على العمال العزل الذين احتشدوا لحضور اجتماع بالقرب من مانشستر. وفي ١٨٣٩، تحول رد فعل عمال ويلز في مواجهة الاستغلال غير الانساني الى انتفاضة.

وفي فرنسا بدأت الطبقة العاملة تعلن مطالبها ولم تكتف في ذلك بسلاح الاضراب بل استخدمت أيضاً العصيان المسلح. وأوضحت اضرابات النجارين والخبازين وعمال الغزل في عام ١٨٢٢، وإضرابات عمال الفحم، وقاطعي الأحجار، وغيرهم في عديد من المدن، أوضحت أن الطبقة العاملة تتحول بتدرج متصاعد - رغم الطبيعة العفوية لنشاطها ورغم غياب الوعي الاشتراكي - الى قوة مؤثرة.

وفي ليون تحولت انتفاضة عمال الغزل، عام ١٨٣١، بعد اتساع نطاقها لتصبح حركة مناهضة للرأسمالية.

ان الحقبة التي يشهدت ظهور الماركسية هي الحقبة التي اكتملت فيها التغييرات البرجوازية الديمقراطية في أوروبا الغربية، وهي الفترة التي شهدت المقدمات التي أدت للثورات البرجوازية التي تفجرت عام ١٨٤٨ الا أن البرجوازية، في معظم البلدان الأوروبية، كانت قد فقدت في ذلك الوقت منطلقها الثوري، اذ لم تعد تهتم باكمال التغييرات الديمقراطية وذلك لأن الطبقة العاملة ستتمكن بذلك من استخدام الحريات الديموقراطية في نضالها التحرري. وفي تلك الظروف تحول النضال من أجل الديموقراطية الى نضال ضد البرجوازية المحافظة التي أخذت تسعى الى ايجاد حل وسط مع أعداء الديمقراطية. وقد لعب هذا الظرف أيضاً دوراً ملحوظاً في نشأة الماركسية.

كانت المانيا، البلد الذي أنجب ماركس وانجلس، بلدا متخلفا اقتصادياً وسياسياً بالمقارنة ببريطانيا وفرنسا. ففي حين قضت البرجوازية القوية والغنية في بريطانيا وفرنسا (والمتمركزة في المدن الكبرى وفي العواصم بوجه خاص) على

الدعـائم الأساسيـة للنفوذ الاقطاعي، احتفظـت النبالـة الاقطاعية في ألمانيا بمعظم امتيازاتها

ولم تكن البرجوازية في ألمانيا تملك حتى ذلك الوقت أية سلطة سياسية الا أنها احتفظت بنفوذ اقتصادي مسيطر وكـان الشعـب العامل يعاني من الاضطهاد الثنائي لملاك الأراضي والرأسماليين. وكانت البرجوازية الألمانية، وقد أرعبتها أحداث الثورة الفرنسية، ترقب بانزعاج غير مخبوء نمو البروليتاريا في بلدها والبوادر الأولى لنشاطها السياسي. وفي اربعينيات القرن التاسع عشر ظهرت في ألمانيا عشرات الكتيبات التي تناقش كيفية «مواجهة» البروليتاريا وقد اعتبر مؤلفو هذه الكتيبات وجود البروليتاريا مصيبة تاريخية وخطرا مرعبـا يهدد الرخاء والحضارة. الا أن ماركس وانجلس نظرا للبروليتاريا بوصفها القوة الثورية الكبرى التي يمكنها أن تضع حدا لكل اضطهاد اجتماعي.

كانت ألمانيا تشهد بوادر ثورتها البرجوازية الأولى وفي حين طرحت الدساتير الديمقراطية البرجوازية في بريطانيا وفرنسا اثر قيام ثورتيهما، كانت الملكية المطلقة ما تزال سائدة في ألمانيـا الا أن الطبقة العاملة الألمانية في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الماضي كانت تمثل دون ريب قوة سياسية أعلى تطورا بالقياس للبروليتاريا في انجلترا أو فرنسا في القرنين السابع عشر والثامن عشر، أي من الفترة التي شهدت قيام الثورة البرجوازية في بريطانيا وفرنسا. وقد ترك هذا الظرف أثره الخاص في سلوك البرجوازية الألمانية التي لم تكن، ومنذ البداية، طبقة ثورية والتي سعت الى حل وسط مـع الملكيـة الاقطاعيـة. وهكـذا، كانت الطبقة العاملة

والفلاحون معها يقفون في معاداة العلاقات الاقطاعية ومثل نشاطهم الخاص القوة الثورية الأساسية، وهو الأمر الذي لم يكن ممكناً في الثورات البرجوازية المبكرة. وقد أدت التناقضات بين الطبقة العاملة وبين البرجوازية في ألمانيا، بصورة حتمية، الى موقف انبثقت معه في مجرى النضال ضد الاقطاع ومن أجل تحقيق التحولات الديمقراطية البرجوازية للمجتمع قضية الغاء كل صور الاستغلال، وتحقيق الاشتراكية. على هذا النحو كانت شروط الثورة الديمقراطية البرجوازية تنضج في ألمانيا، وانتقل مركز الحركة الثورية في أوروبا الى ذلك البلد وكان ذلك ما جعل ألمانيا البلد الذي شهد مولد الماركسية.

لقد أبدع ماركس وانجلس مذهبا عكس وصاغ على نحو علمي الحاجات الحيوية لحركة الطبقة العاملة التي كانت تتخبط في الظلام بدون نظرية علمية صحيحة ترشد خطاها. واستطاعت الماركسية أن تلبي على أكمل وجه هذه الحاجة الماسة للنضال التحرري للبروليتاريا، مزودة اياه بالنظرية الاشتراكية العلمية التي تبين السبل والأدوات اللازمة من أجل تحرر الطبقة العاملة، وكاشفة القوانين التي تحكم تطور المجتمع التي تؤدي موضوعيا الى الانتقال الثوري من الرأسمالية إلى الاشتراكية.

« الماركسية بوصفها استمرارا مباشرا للمذاهب الاجتماعية الرائدة في القرن التاسع عشر »

غالبا ما يصور خصوم الماركسية هذا المذهب بوصفه انكارا عدميا لكل التطور السالف للعلم والثقافة. ومن الأمثلة المناسبة تماما في هذا

الصدد كتاب «الأسس الأيديولوجية للشيوعية» الذي ألّفه البروفيسور هـ. فولك من ميونيخ. وفي بداية الكتاب نجد الخطبة العصماء التالية: «أن الأيديولوجية الشيوعية هي الانكار الكامل للمجموع الذي لا يحد من المعارف الفلسفية والذي تراكم خلال تطور الثقافة عبر ما يقرب من ألفي عام»[١١]

وسوف نكتفي هنا باقتباس هذه الفقرة لأن كل عرضنا التالي سوف يثبت أن الماركسية لم تنشأ بعيداً عن مسار التطور الانساني، وان ماركس وانجلس قدما الاجابات على الأسئلة التي أثارتها العقول الانسانية التقدمية وأن الماركسية قد ظهرت بوصفها استمرارا مباشرا وفوريا لمذاهب الممثلين العظام للفلسفة والاقتصاد السياسي والاشتراكية الطوباوية. فما هو موقف الماركسية من الانجازات السابقة للفكر الفلسفي والاقتصادي والاجتماعي؟

الفلسفة الكلاسيكية الألمانية

تمثل الفلسفة الكلاسيكية الألمانية (أي فلسفة كانت وفشته وشيلنج وهيجل وفويرباخ) الانجاز الأعظم للفلسفة عند نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، والذي شكل واحدا من المصادر النظرية للماركسية.

لقد تركت الفلسفة الكلاسيكية الألمانية أثرا عظيما وباقيا على مر الزمن عندما صاغت على نحو متسق القضايا الأساسية للجدل، وبوجه خاص جدل عملية المعرفة. فهيجل - أعظم ممثلي الفلسفة الكلاسيكية الألمانية - حاول أن يثبت شمولية العمليات الجدلية وأن يبرهن على الأهمية الخاصة للجدل بوصفه منهجا شاملا للبحث. وذلك ما يضع الجدل الهيجلي - أعلى الأشكال التاريخية للجدل في الفلسفات السابقة

(١١) H. Falk, die ideologischen grundlagen des kommunismus, Munich, 1961, P.7.

على الماركسية - في موضع متميز بالنسبة لأشكال الجدل السابقة (في الفلسفة القديمة، وفي عصر النهضة والى حد ما في العصر الحديث). وقبل هيجل لم يكن الجدل نظرية مستخلصة على نحو متسق ونسقاً للمقولات، بل كان في الأساس مجموعة غير مترابطة من الأفكار والقضايا الجدلية، ومفهوما فجا للطبيعة الانتقالية والمتناقضة للأشياء جميعا، وكان يبني أساسا على عمليات الملاحظة المباشرة للطبيعة، وعلى الحدوس الجدلية اللماحة، ولا شيء أكثر وقد أوضح لينين أنه لولا الفلسفة الكلاسيكية الألمانية لما أمكن الانتقال من مادية القرن الثامن عشر الميتافيزيقية الى المادية الجدلية. ويقول لينين أيضاً: «لم يتوقف ماركس عند مادية القرن الثامن عشر: بل طور الفلسفة الى مستوى أعلى. فقد أثراها بمنجزات الفلسفة الألمانية الكلاسيكية، والنسق الهيجلي بوجه خاص، الذي أدى بدوره الى مادية فويرباخ. وقد تمثل الانجاز الرئيسي في الجدل، أي مذهب التطور في أكثر أشكاله اكتمالا وعمقا وشمولا مذهب نسبية المعرفة الانسانية الذي يزودنا بانعكاس للمادة المتطورة أبداً

ونحن لا نستطيع أن نفهم الديالكتيك بوصفه الانجاز الرئيسي للفلسفة الكلاسيكية الألمانية دون النظر بامعان في الحقبة التي شهدت الثورات البرجوازية وانهيار العلاقات الاجتماعية للمجتمع الاقطاعي في فترة تاريخية قصيرة نسبيا لقد محت الرأسمالية العلاقات الاجتماعية الاقطاعية الراكدة، لتظهر الى الوجود فروعاً جديدة للانتاج وطبقات اجتماعية جديدة ولتدفع بتطور العلوم الطبيعية خطوات واسعة للأمام. وانهارت كل المفاهيم الأيديولوجية السائدة في المجتمع الاقطاعي. وبدلا من التقليل من شأن الانسان من خلال الفكر الغيبي ظهرت السيادة المتفائلة للعقل. وكتب هيجل يقول «كل ما هو واقعي

(١٢) V. Lenin, coll. works, Vol. 19, P. 24.

معقول، وكل ما هو معقول واقعي». وحاول هيجل، منطلقا من فكرة شمولية التطور والتغير، أن يبرهن على أن التقدم الاجتماعي تحكمه قوانين محددة وأن في الامكان اعادة بناء الحياة الاجتماعية بصورة عقلانية.

مثالية هيجل الجدلية

تؤدي المسلمة الرئيسية في الفلسفة الهيجلية، فيما يتعلق بعملية التطور الدائمة في العالم وكذلك ايمان هيجل المطلق بقدرات العقل الانساني، تؤدي لا محالة الى النتيجة القائلة بأن النضال ضد الزيف القائم وضد الشرور الاجتماعية انما ينبع من القانون الشامل للتطور الأبدي ومن ثم فهو عقلاني وضروري. ويكشف هيجل، في كتابه الرئيسي «علم المنطق»، الارتباط الجدلي والتفاعل المتبادل لمثل تلك المقولات الفلسفية والعلمية: الوجود واللاوجود، الكم والكيف، المتناهي واللامتناهي، الماهية والمظهر، التشابه والاختلاف، الضرورة والصدفة، الحرية والضرورة، الذاتي والموضوعي، المثالي والواقعي، الكلي والفردي، الخ. ولم يقتصر عمل هيجل على دراسة المفاهيم المتعارضة والتي تجتمع في وحدة واحدة. لقد وضع مجموع المقولات في شكل سلم مراتبي، كمراحل في مسار الوعي الذاتي، والتطور الذاتي. «للفكرة المطلقة»، التي تمثل الماهية الروحية للعالم. وكان هيجل يرى في الطبيعة تجسيدا مباشراً «للفكرة المطلقة» كذلك أشار هيجل للطابع المحدود للمنطق الصوري الذي لا يقر سوى الهوية المجردة (أهي أ)، في حين أن عبارة (على سبيل المثال، الوردة نبات) تأخذنا الى أبعد من حدود الهوية البسيطة، كما انتقد هيجل المنطق الصوري لتفسيره الهزيل للتناقض على أنه التعارض أو التضارب بين قضيتين تستبعد كل منهما الأخرى، وهو يؤكد «ان التناقض هو المحرك الحقيقي للعالم، ومن السخف تماماً القول بأن التناقض لا يمكن للعقل

أن يفهمه »[١٣]

كذلك يؤكد هيجل، محددا السمة الأساسية للتناقض، أنه لا ينبغي تفسير التناقض على أنه نوع من الشذوذ أو التصدع، أي بوصفه عيبا في الشيء المعي، انه الترابط المتبادل وهو التكيف المتبادل لكلا الجانبين. انه « مبدأ كل حركة ذاتية ». ان وجود التناقضات في أية ظاهرة هو الدليل على تطورها ويقول هيجل « وبالتالي، فان الشيء لا يصبح مفعماً بالحياة الا بقدر ما ينطوي على هذا التناقض، وبالقدر الذي يصبح به، فضلا عن ذلك، قوة قادرة على احتواء هذا التناقض والصمود أمامه

كان الجدل الهيجلي هو أكثر نظريات التطور خلال عصره اكتمالا وشمولا صحيح أن هذا الجدل قد تمت صياغته من منطلق مثالي زائف، الا أن ماركس أوضح أن « الطابع الملغز الذي يعانيه الجدل على يدي هيجل لا يمنع على الاطلاق أن هيجل هو أول من قدم المنهج العام لفعاليته بطريقة شاملة وواعية. ومع هيجل يقف الجدل على رأسه ويتعين علينا أن نعيده ثانية الى وضعه الصحيح، اذا أردنا أن نكتشف « نواة » العقلانية في المحارة الاسطورية »[١٥] لقد افترض هيجل أن التقدم يجري في الفكر فقط. ولم يسلم بتطور المادة، وتطور الطبيعة. وعلى عكس هيجل، صاغ ماركس وانجلس الجدل بوصفه مذهباً للتطور الشامل، وعلما للقوانين الأكثر عمومية التي تحكم تطور الطبيعة والمجتمع والفكر الانساني، وذلك هو بالتحديد ما أسمياه قلب الجدل الى وضعه الصحيح، أي أن يملأ بمضمون واقعي، مضمون استخلصه مؤسسا الماركسية من العلم الطبيعي والاقتصاد السياسي والتاريخ.

(١٣) Hegel, coll. works, Vol. 1, P.206.
(١٤) Ibid. Vol. 5, P. 521.
(١٥) Marx, capital, Moscow, Vol. 5.,P.20.

مادية لودفيج فويرباخ الأنثروبولوجية

تناول ماركس وانجلس، في نقدهما لمثالية هيجل الجدلية، الفلسفة المادية لفويرباخ، الذي أكمل مذهبه المرحلة الأخيرة في تطور الفلسفة الكلاسيكية الألمانية. وعلى النقيض من هيجل، تبنى فويرباخ مادية أنثروبولوجية، يصبح التفكير تبعا لها قدرة انسانية ترتبط على نحو لا ينفصم بالانعكاس الحسي للعالم المادي الخارجي وبالحياة الحسية والعاطفية للانسان. وفي فلسفة فويرباخ، أصبح الانسان أرقى مخلوقات الطبيعة، وجزءا لا يتجزأ منها الا أن الوحدة التي تربط بين الانسان والطبيعة، شأنها شأن حياة الفرد المتنوعة والمتعددة الجوانب، قد فسرت من جانب فويرباخ من منطلق «طبيعي ورغم أن فويرباخ يؤكد الطبيعة الاجتماعية للانسان، الا أنه يستنبطها من جماعية البشر الأفراد كجنس أو قبيلة، ومن الوحدة البيولوجية للنوع الانساني، والروابط الجنسية وما يشأ عنها من علاقات بين الرجل والمرأة وبين الآباء والأبناء، الخ. وقد حاول فويرباخ أن يستكشف الفوارق الكيفية (الأنثروبولوجية) بين الانسان وبين الكائنات الأخرى، والتي يمكن ملاحظتها حتى في الأشياء المشتركة (الحواس، الشعور، الجنس، الخ)، الا أن فويرباخ لم يستوعب الجدل الهيجلي، ولم يقبل به ولم يفطن الى أنه من الممكن تحريره من غطائه المثالي.

كذلك انطوى مبدأ فويرباخ الأنثروبولوجي على بدايات الفهم المادي للظواهر الاجتماعية، وخاصة فيما يتعلق بالدين، الذي شكل نقده المحتوى الأساسي لمذهبه. وكانت السمة الأساسية التي ميزت فلسفة فويرباخ عن ماديي القرن الثامن عشر الفرنسيين أنه لم يرد أسباب وجود الدين إلى الجهل والخديعة، وانما حاول أن يبرهن على أن الصور والخيالات الغيبية تعكس حياة الانسان: معاناته، جهاده

من أجل السعادة، أمانيه وأحلامه. فالانسان كما يقول فويرباخ، يؤمن بالآلهة ليس لأنه يمتلك خيالا وعواطفا فحسب، بل أيضاً لأنه يجاهد من أجل أن يصبح سعيدا انه يؤمن بوجود كائن مقدس ليس فقط لأنه يمتلك فكرة عن القداسة، بل لأنه يريد أن ينعم هو نفسه بالقداسة والبركة، وهو يؤمن بوجود الكائن الكامل لأنه يود أن يصبح هو نفسه كاملا، وهو يؤمن بوجود كائن أزلي خالد لأنه لا يريد لنفسه الموت. الا أن فويرباخ لم يدرك الجذور الاجتماعية المؤقتة تاريخياً للدين. وذلك هو السبب في أنه حاول، في الوقت الذي قدم فيه الدواعي المبررة للالحاد، أن ينشيء ديناً جديداً، دين بدون اله، ويوضح هذا الملمح النوعي الخاص لفلسفة فويرباخ أنه لم يكن متسقا مع نفسه كملحد.

كان فويرباخ الممثل البارز للفلسفة المادية السابقة على الماركسية في ألمانيا وتتمثل الأهمية التاريخية لفلسفته بوجه خاص في أنه وجد نقدا شاملاً لمثالية هيجل. الا أن القصور الأساسي في فلسفة فويرباخ ظهر في اخفاقه في تمثل الجدل الهيجلي بأسلوب مادي.

ولقد اكتملت بفلسفته المرحلة الأخير من تطور الفلسفة الكلاسيكية الألمانية كما مهدت هذه الفلسفة الطريق أمام التطور اللاحق للفكر الفلسفي. وفي ذلك ما يفسر الأثر الخاص للفلسفة الفويرباخية (شأنها شأن فلسفة هيجل تماما) على فكر ماركس وانجلس.

الاقتصاد السياسي الكلاسيكي الانجليزي

مثل الاقتصاد السياسي الكلاسيكي الانجليزي انجازا بارزا للفكر الاقتصادي العالمي عند نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. وقد شكل المصدر النظري الثاني للماركسية. ويعد كل من آدم سميث (١٧٢٣-١٧٨٠) ودافيد ريكاردو (١٧٧٢-١٨٢٣) أبرز ممثليه.

والواقع أن السبب الرئيسي لما اكتسبته نظريات سميث وريكاردو الاقتصادية من أهمية خاصة هو أنها اقتنعا، وعلى عكس المفكرين الاقتصاديين السابقين، بأن الثروة الحقيقية للمجتمع البرجوازى تتشكل أساساً من السلع التي تجسد العمل المأجور

لقد دافع أصحاب النزعة الميركنتلية (التجارية) عن وجهة النظر القائلة بأن الفرق بين ثمن شراء السلع وثمن بيعها هو مصدر الثروة، في حين ذهب الفيزيوقراطيون الى أن الزيادة في منتجات الطبيعة (الزراعة، تربية المواشي، الخ) هي التي تشكّل مصدر الثروة. الا أن كلاسيكيات الاقتصاد السياسي الانجليزي أثبتت أن كلا من الطبيعة والتجارة لا يمكن أن تنشىء الثروة أو أن تضيف اليها، انما الثروة يخلقها العمل المأجور بصفة عامة، وليس العمل الزراعي المأجور وحدة.

وقد أسس آدم سميث ودافيد ريكاردو نظرية العمل المأجور الخاصة بالقيمة. وتبعا لهذه النظرية لا تتحدد قيمة السلع (وبالتالي أسعارها أيضاً) عن طريق العرض والطلب في السوق. كما لا تتحدد بكمية النقد المتداول في السوق، ولا حتى من خلال الخواص الاستعمالية الموضوعية لهذه السلعة أو تلك، بل تتحدد فقط من خلال كمية العمل المبذولة اجتماعيا في انتاج هذه السلع

وهذه الفكرة البسيطة في ظاهرها انطوت على قضية بالغة الأهمية حول الدور الحاسم لقوة العمل في خلق الثروة الاجتماعية كلها، والتي يملك القسم الأعظم منها أصحاب رأس المال، في حين يعيش منتجوها حياة الكفاف، ويقتبس ماركس في مؤلفه «نظرية فائض القيمة» عن مؤلف مجهول كتب عام ١٨٣٢ يهاجم بشراسة نظرية العمل المأجور الخاصة بالقيمة. يقول هذا المؤلف: «ان المذهب القائل بأن العمل هو المصدر الوحيد للثروة ليس مجرد مذهب باطل

بل هو مذهب شديد الخطورة أيضاً، وذلك لأنه يقدم، لسوء الحظ، سدا كبيرا لهؤلاء الذين يزعمون أن كل ملكية انما تنتمي للطبقات العاملة وأن القسم الذي يحصل عليه الآخرون قد تم الاستحواذ عليه أو تمت سرقته من تلك الطبقات »[١٦]

وبطبيعة الحال فان سميث وريكاردو لم يستخلصا مثل هذه النتائج من مذهبهما فلقد كانا مؤيدين ثابتين للرأسمالية ولم يلاحظ أي منهما مساقضاتها الكامنة العميقة. وقد فسر كل منهما قانون القيمة على أنه برهان صادق على عقلانية وعدالة النظام الرأسمالي حيث يشتري كل شيء ويباع حسب قيمته ودون مخاتلة. وتركز الاهتمام الأساسي للاقتصاد السياسي الكلاسيكي في توطيد دعائم العلاقات الاجتماعية البرجوازية وتأييدها وتصوير الاقتصاد الرأسمالي على أنه أكثر أنظمة الانتاج الاجتماعي اكتمالا، وعلى أنه نظام طبيعي وخالد يتسق تماما مع « طبيعة » الانسان.

ونتيجة لطبيعة تناول كلاسيكيات الاقتصاد السياسي الانجليزي للانتاج الرأسمالي، لم يكن ممكنا أن تفهم هذه الكلاسيكيات على نحو علمي كيف نشأ هذا النمط الانتاجي وطبيعة تناقضاته الكامنة وطابعه المؤقت أو الانتقالي تاريخيا

لهذا السبب لم تتمكن كلاسيكيات الاقتصاد السياسي الانجليزي من اكتشاف مصدر فائض القيمة، رغم أنها فطنت بالفعل الى أن الربح والريع والفائدة انما هي أجزاء من القيمة. وكان معنى استشفاف طبيعة فائض القيمة أن يتم اثبات الطابع المتناقض للانتاج البرجوازي، وأن يوضح أن القيمة التي يتم انتاجها عن طريق العمال هي أكبر بكثير من الأجور التي يحصلون عليها، وهو ما يعني أن الرأسمالي لا يدفع للعامل جانبا من وقت عمله وأنه يستحوذ على ذلك

(١٦) Marx, theory of surplus value, Moscow, Vol. 3, 1936, P.45 (Russ. éd.)

الجزء من عمل العامل غير المدفوع الأجر، وأنه يدفع له في أحسن الأحوال ما يوازي بالكاد قيمة قوة عمله.

وربما بدا غريبا أن هؤلاء العلماء، المناصرين لرأس المال، قد صاغوا نظرية سُمي ريكاردو بفضلها - على سبيل المثال - من قبل بعض خصومه «أب الشيوعية». على أن النقطة الأساسية هنا هي أن التناقضات القائمة بين البروليتاريا والبرجوازية لم تكن، على أيام سميث وريكاردو، قد وصلت بعد الى مرحلتها المتطورة. فلم يكن العمال قد شكلوا بعد تلك القوة التي تهدد وجود النظام الرأسمالي. بل على العكس، كانوا يساندون البرجوازية في نضالها ضد الارستقراطية الاقطاعية. وعلينا أن نلاحظ هنا أن نظرية العمل المأجور فيما يتعلق بالقيمة كانت موجهة أساساً ضد الأرستقراطية الاقطاعية، فهذه النظرية أثبتت أن القيمة والثروة يتم خلقهما فحسب في الانتاج الذي ينظمه الرأسماليون، في حين تشكل الارستقراطية الزراعية طبقة طفيلية تنهمك في الاستهلاك دون أن تنتج شيئا وطوال الفترة التي كانت فيها التناقضات الطبقية غير متطورة بعد، كان الاقتصاد السياسي ما يزال قادرا على أن يصوغ بعض القضايا العلمية، ثم حدث أن فقد هذه القدرة، مع نمو الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبرجوازية، وبدأ يتحلل الى ما سمي بالاقتصاد السياسي المبتذل، الذي رفض نظرية القيمة وأنصب اهتمامه كله في تبرير وجود الانتاج الرأسمالي، وتصويره على أنه التعاون المنسجم بين الطبقات.

وفيما بعد، قبل أتباع ريكاردو بالنظرية غير العلمية لمالتوس والتي تفسر افقار الشعب العامل من خلال المعدل المتزايد للمواليد، لتخفي بالتالي الأسباب الحقيقية للفقر كذلك قبل أتباع ريكاردو بالاقتصاد السياسي المبتذل للاقتصادي الفرنسي «ج.ب.ساي»، الذي أكد أن العمل المأجور الذي يقدمه العمال لا يخلق سوى الأجور التى يحصلون

عليها. أما الربح الذي يجنيه الرأسمالي والريع الذي يغله مالك الأرض، فينتجان عن رأس المال والأرض. وهكذا فقد الاقتصاد السياسي خلال تطوره عناصر ذلك المضمون العلمي الأصيل الذي ظل قائماً في الاقتصاد السياسي الكلاسيكي الانجليزي. وقد فندت الوقائع تماما مزاعم ممثلي الاقتصاد السياسي المبتذل القائلة بأن هناك انسجاما بين مصالح العمل المأجور ورأس المال وبأن تطور المنافسة الحرة يعزز الرخاء العام.

لقد انتقد الاقتصاديون البرجوازيون الصغار من أمثال «س. سيسموندي» و«ب. برودون» الذين مثلوا ذلك الجانب من المجتمع الرأسمالي الذي دفعته الرأسمالية الصناعية الى الافلاس ليتحول الى بروليتاريا الاقتصاد السياسي الكلاسيكي وأشاروا الى المفارقات الصارخة القائمة في الواقع الرأسمالي. الا أن هؤلاء الاقتصاديين لم يستطيعوا ان يوضحوا مخرجا من تناقضات الرأسمالية، بل أخذوا يبحثون عن مثلهم الأعلى الاجتماعي في الماضي، في الاقتصاد السلعي البسيط الذي أضفوا عليه، من كل النواحي، الطابع المثالي، وكان ماركس وانجلس وحدهما هما اللذان أبدعا اقتصادا سياسيا علميا، وهو ما سنعرض له بايجاز في قسم تال من هذه الدراسة.

الاشتراكية الطوباوية

شكلت اشتراكية القرن التاسع عشر الطوباوية المصدر النظري الثالث للماركسية. ولقد اشتق اسمها من كتاب «اليوتوبيا» (والتي تعني حرفيا «مكانا لا وجود له») للمفكر الانجليزي والزعيم الديني الشهير توماس مور (١٣٥٣-١٤٧٨)، والذي نشر في بداية القرن السادس عشر. وقد هاجم توماس مور بقوة التصرفات التعسفية والبالغة القسوة لملاك الأراضي من الأرستقراطيين الانجليز الذين

كانوا يسوقون الفلاحين من الأراضي التي يزرعونها ويقوضون بيوتهم الصغيرة ثم ينشئون مزارع لتربية الماشية على الأراضي «المطهرة» لتزودهم بالصوف اللازم لصناعة النسيج التي تنمو بوتائر سريعة. وفي كتابه رسم مور، في مواجهة الواقع القاسي، نظاما اجتماعياً مثالياً لا وجود فيه للملكية الخاصة ولا لغني أو فقير ولا لعاطلين بالوراثة وكادحين يضنيهم العمل الشاق

كذلك يعد الفيلسوف الايطالي توماسو كامبانيلا (١٥٦٨-١٦٣٩) أحد الممثلين البارزين للاشتراكية الطوباوية المبكرة. وفي كتابه «مدينة الشمس» يصور كامبانيلا نظاما عقلانيا يقوم على الملكية العامة. ويتحقق فيه التحرر من الفقر والجهل والفساد. كذلك صور الاشتراكي اليوتوبي الفرنسي مورلي مؤلف «دستور الطبيعة» وميبه (الذي نشر كتابه «وصيتي» بعد وفاته) مجتمع المستقبل من نفس المنطلق.

وفي القرن التاسع عشر كان سان سيمون (١٧٦٠-١٨٢٥) وشارل فوريـه (١٧٧٢-١٨٣٧) الفرنسيـين والانجلـيزي روبرت أوين (١٧٧١-١٨٥٨) أبرز ممثلي الاشتراكية الطوباوية. وقد تمثل الاسهام الهام الذي أنجزه هؤلاء المفكرين ذوي النزعة الانسانية في محاولتهم البرهنة على امكانيةومواتاة الانتقال من الرأسمالية الى نظام اجتماعي تعزز فيـه الملكية العامة والعمل الجماعي، لكل أفراد المجتمع، التواجد الوفير للثروة المادية والتطور الثقافي الشامل لكل انسان، وعلى أن ذلك سيؤدي الى القضاء على الفقر والاستغلال والجريمة، كما سيتحول العمل الى مصدر للمتعة.

وفي بداية القرن التاسع عشر مثلت الاشتراكية الطوباوية التعبير النظري عن خيبة الأمل التي أصابت الجماهير العاملة ازاء النتائج الاجتماعية التي ترتبت على الثورة البرجوازية الفرنسية التي قامت

عام ١٧٨٩ فهذه الثورة أعلنت شعارات الحرية والمساواة والاخاء. ولقد بدا أن القضاء على الاقطاع وعلى امتيازات ملاك الاقطاعيات وتأسيس الحريات المدنية سوف يساعد على تحقيق جو من الرخاء العام. الا أن الرأسمالية قدمت للشعب العامل شكلاً جديداً من الاستغلال، دون أن تقدم أية حرية حقيقية. وأثبتت المساواة التي وعدت بها الثورة أنها اطار شكلي، لأنه لا يمكن أن تقوم أية مساواة حقة بين المستغلين والمستغلين. أما بالنسبة للاخاء فقد قدم المجتمع البرجوازي كاريكاتيرا مشوهاً لهذا المثل الأعلى.. وكان هذا التناقض بين شعارات الثورة البرجوازية الكبرى وبين نتائجها العملية هو نقطة الانطلاق بالنسبة للنقد الذي وجه للرأسمالية والذي تمثل في كتابات الاشتراكيين اليوتوبيين البارزين في القرن التاسع عشر. لقد عبروا - دون أن يدركوا ذلك ادراكا واعيا - عن مصالح الطبقات المستغلة (بفتح الغين) والبروليتاريا في المقام الأول، التي أخذت تتبلور بصورة تدريجية من بين الكتلة العريضة من الكادحين بوصفها طبقة العمال المأجورين المحرومين كلية من ملكية وسائل الانتاج. الا أن سان سيمون وفورييه وأوين رفضوا صراع الطبقات وأعلنوا أن التنوير والتعليم والتعاون بين الطبقات وحدها الوسائل التي تؤدي لتحقيق الاشتراكية.

لقد بذلوا جهدهم ليكسبوا الرأسماليين وأصحاب السلطة لصف الاشتراكية كما نظموا المستعمرات النموذجية التي تدار بأسلوب اشتراكي وكان اليوتوبيون بعيدين تماما عن فكرة أن الاشتراكية لا يمكن أن تبنى إلا بأيدي الشعب العامل نفسه بل، وأكثر من ذلك، من خلال النضال ضد الطبقات المستغلة. وبدا لهم أن في الامكان البرهنة على مزايا الاشتراكية لا بالنسبة للطبقات غير المالكة فحسب بل بالنسبة للعناصر المالكة نفسها أيضاً وبطبيعة الحال لم تكن

الطبيعة الطوباوية للمذاهب الاشتراكية التي صاغها سان سيمون وفورييه وأوين شيئاً عارضاً من الوجهة التاريخية. فالعلاقات الرأسمالية القائمة في تلك الأيام لم تكن قد بلغت من التطور ما يكفي للكشف عن المسارات الواقعية التي تؤدي الى التحرر الاجتماعي للشعب العامل. وفي ذلك كتب انجلس يقول: «كذلك حكم هذا الظرف التاريخي مؤسس الاشتراكية. **ففي موازاة الشروط غير الناضجة للانتاج الرأسمالي والشروط غير الناضجة على المستوى الطبقي، كانت تظهر نظريات غير ناضجة. وقد حاول اليوتوبيون أن يستخلصوا حلاً للمشكلات الاجتماعية، والذي كان ما يزال مستترا وكامنا داخل الشروط الاقتصادية غير المتطورة، من داخل الدماغ الانساني**»[١٧].

لقد شجب الاشتراكيون اليوتوبيون الرأسمالية وبينوا بعض متناقضاتها الكامنة، كما انتقدوا الملكية الخاصة وناشدوا الملوك والبرجوازية (آل روتشيلد على سبيل المثال)، وحثوهم على أن يحلوا محل النظام الرأسمالي الأحمق (غير الملائم، في رأي اليوتوبيين، حتى بالنسبة للبرجوازية ذاتها) الاشتراكية التي بدت في نظر اليوتوبيين اختراعا أبدعته قريحتهم العبقرية لا نتيجة حتمية وضرورية للتطور الاقتصادي للرأسمالية.

وقد لاحظ ماركس. وانجلس أنه مع تطور الرأسمالية وتفاقم التناقضات القائمة بين العمل المأجور ورأس المال، اكتسب انكار اليوتوبيين للصراع الطبقي ومناشدتهم «الطبقة العليا» في المجتمع ودفاعهم عن الاصلاحات وعن التضامن بين الطبقات، اكتسب مغزى رجعيا وذلك لأنهم أسهموا في عرقلة تطور حركة الطبقة العاملة وتعمية الوعي الطبقي للبروليتاريا والواقع أن مذاهب سان سيمون

(١٧) F. Engels, anti- Dühring Moscow, P. 355.

وفورييه وأوين قد تفككت مع حلول أربعينيات القرن التاسع عشر الى فرق تناهض النضال الثوري للطبقة العاملة.

وفي تناولها للأفكار العقلانية التي انطوى عليها النقد الذي وجهه الاشتراكيون اليوتوبيون للرأسمالية واستشفافهم العبقري للمستقبل الاشتراكي، سجل ماركس وأنجلس الأهمية الخاصة لتلك الأفكار والرؤى المستقبلية. وكشف ماركس وانجلس، في الوقت ذاته، افلاس أفكارهم حول أساليب الانتقال الى الاشتراكية، كما أثبتا انعزالهم الطائفي عن حركة البروليتاريا وسعيهم الدؤوب للوصول الى حل وسط مع الطبقات الحاكمة. وقد استطاع مؤسسا الماركسية، من خلال تمثل الأفكار العقلانية في الاشتراكية الطوباوية واعادة صياغتها، أن يصوغا المبادىء الأساسية للنظرية الاشتراكية من خلال تلخيص خبرة التاريخ، أو بعبارة أوجز، استطاعا أن يحولا الاشتراكية من يوتوبيا الى علم.

المتطلبات الأساسية الخاصة بالعلم الطبيعي من أجل تطور نظرة مادية جدلية للعالم

حفز تطور الرأسمالية - والصناعة الكبيرة بوجه خاص - التقدم السريع للعلم الطبيعي الذي ساعد باكتشافاته الضخمة لا على تسهيل تحقيق شروط التصنيع الرأسمالي فحسب، بل وأدى أيضاً الى تفنيد المفهوم البدائي وغير العلمي للطبيعة والذي ظل سائدا طوال القرون السابقة. وتتمثل ماهية هذه المفاهيم بايجاز في النقاط التالية: لا شيء يتغير في الطبيعة، لا شيء جديد يظهر الى الوجود ولم يكن موجودا من قبل. وقد وجهت الاكتشافات الكبرى للعلم الطبيعي في النصف الأول من القرن التاسع عشر ضربة قاضية لهذه النظرة للطبيعة.

فمنذ بداية القرن الثامن عشر اكتشف لومونوسوف

(١٧١١-١٧٦٥) ومن بعده لافوازييه (١٧٤٣-١٧٩٤) قانون بقاء المادة والحركة. الا أن العلم الطبيعي كان يبحث أساسا، في ذلك الوقت، في الشكل الميكانيكي لحركة المادة، ولم يكن يعرف بوجود أشكال أخرى غير ميكانيكية لحركة المادة، وكان يعتبر الحرارة والكهرباء والضوء والعمليات الكيميائية والفيزيائية الأخرى « جواهر » من نوع خاص « عديمة الوزن ». وفي القرن التاسع عشر فقط طرحت دراسة الأشكال المختلفة والمتميزة كيفيا لحركة المادة أمام العلم الطبيعي قضية ترابطها المتبادل.

وفي بداية أربعينيات القرن الماضي صاغ الفيزيائي الألماني « ر ماير » (١٨١٤-١٨٧٨) قانون بقاء الطاقة، والذي تتحول طبقا له كمية محددة للحركة في أحد أشكالها الى كمية مساوية من الحركة في بقية الأشكال. وبعد ماير، أثبت هلمهولتز (١٨٢١-١٨٩٤) وفاراداي (١٧٩١-١٨٦٧) هذا القانون تجريبيا ثم أثبت العالمان جول (١٨١٨-١٨٨٩) ولينز (١٨٠٤-١٨٦٤) تجريبيا المكافىء الميكانيكي الحراري، وحددا حسابيا الكمية اللازمة من الطاقة الميكانيكية لتوليد وحدة واحدة من الطاقة الحرارية. وهكذا استبعد تماما مفهوم « الجواهر عديمة الوزن ». وأصبح واضحا أن حركة المادة لا تنشأ من تلقاء ذاتها كما انها لا تنعدم وانما تتحول بصورة دائمة من أحد أشكالها الى شكل آخر وفضلا عن ذلك أصبح واضحا أن الحركة لا يمكن أن ترد فقط لانتقال الأجسام في المكان، فالحركة هي التغير بوجه عام. ولقد سبق أن أكد الفلاسفة الماديون القدامى أن الحركة ليست شيئاً منفصلاً عن المادة وانما هي خاصية كامنة فيها. ثم طور الماديون الفرنسيون في القرن الثامن عشر هذه الفرضية. وبفضل اكتشاف قانون بقاء الطاقة، أمكن التوصل الى فهم فلسفي علمي لوحدة المادة والحركة، وللترابط والتفاعل الجدليين بين

كافة العمليات، وأمكن اثبات صحة هذا الفهم تجريبيا على أن العلماء أنفسهم لم يتمكنوا من التوصل الى كل هذه الاستنتاجات الفلسفية التي تنشأ عن اكتشافاتهم. وكان ماركس وانجلس هما اللذان اسخلصا هذه النتائج خلال عملية ابداع وصياغة النظرة الماديه الجدلية للعالم.

كذلك مثل اكتشاف الخلية، أو بعبارة أدق، البنية «الخلوية» للكائنات الحية، انجازا على نفس الدرجة من الأهمية الحيوية بالنسبة للعلم الطبيعي، انجاز جعل الانسان على مقربة من التفسير المادي الجدلي للطبيعة. وقد عرف العلم الطبيعي بوجود الخلايا منذ القرن السابع عشر نظراً لأن الخلايا المفردة ومجموعات الخلايا كانت تلاحظ بصفة دائمة خلال احدى الدراسات الميكروسكوبية لأنسجة الكائنات الحية. الا أن العلم لم يهتم اهتماما مباشرا بالدور الفسيولوجي للخلية الا في القرن التاسع عشر، حيث اكتشف أن كل الكائنات الحية - النباتات والحيوانات - تتكون من الخلايا وفي الفترة بين ١٨٣٨ و١٨٣٩ صاغ البيولوجيان الألمانيان شليدن (١٨٠٤-١٨٨١) وشفان (١٨١٠-١٨٨٢) نظرية الخلية. وأثبت العالمان أن الخلية هي الوحدة التشريحية لأي كائن حي، ان جاز التعبير. وتمكن شفان بوجه خاص من التدليل على أن خلايا الحيوان والنبات تمتلك أساسا تركيبا متشابها وأنها تؤدي الوظيفة الفسيولوجية نفسها فكل كائن بيولوجي ينشأ ويتطور خلال تضاعف عدد الخلايا. وهكذا أكدت نظرية الخلية الترابط العضوي والوحدة الداخلية لكل شيء حي. والواقع أن كلا من شليدن وشفان لم يستطع استخلاص النتائج الفلسفية الصحيحة من اكتشافاتها. ذلك أن شليدن نأى بنفسه عن مثل تلك النتائج لأنه كان مؤمنا بوجهة النظر القائلة بأن جوهر «الأشياء أمر غير قابل للمعرفة. أما شفان فقد أكد، باعتباره

كاثوليكيا متحمسا، أن نظرية الخلية لا تنطبق على الانسان، نظرا لأن الانجيل يقول بأن الله نفسه هو الذي خلق الانسان. وقد استخلص ماركس وانجلس نتائج التحليل العلمي والفلسفي لنظرية الخلية ولاحظا بوجه خاص أنها طرحت على نحو مباشر مسألة الأصل التاريخي لعالم النبات والحيوان بأشكاله المتنوعة. ولقد قدم تشارلز داروين (١٨٠٩-١٨٨٢) الاجابة عن هذا السؤال من خلال نظريته حول أصل الأنواع.

وكانت نظرية التطور الداروينية هي الاكتشاف الكبير الثالث للعلوم الطبيعية الذي مهد الطريق لظهور المادية الجدلية. فقد وضع داروين حدا للفكرة القائلة بأن أنواع الحيوانات والنباتات لا ترتبط ببعضها البعض وأنها حادثة وأنها مخلوقات الله وأنها ثابتة لا تقبل التغير. ولأول مرة أقام داروين البيولوجيا على أساس علمي مدللاً على قابلية الأنواع للتغير والتحول وعلى خط الاستمرارية القائم بينها

ومن المعروف أن العديد من العلماء والفلاسفة قد عبر عن هذه الأفكار الثورية قبل داروين بوقت طويل. فقد تحدث الفيلسوف المادي الفرنسي دينيس ديدرو (١٧١٣-١٧٨٤)، على سبيل المثال، عن امكانية «تحول» الأنواع، وكان يرى أن أضأل دودة ربما تتحول، نتيجة لتغيرات تستغرق عدة ألوف من السنين، الى حيوان كبير

على أن داروين أثار، على نحو يتجاوز تماما هذا المفهوم المجرد غير المبني على وقائع، مسألة أصل الاختلافات بين الأنواع، أي الفروق الصغيرة نسبيا، كما هو الحال على سبيل المثال في حالة الحصان والحمار أو بين البنفسج وزهرة البانسية (الثالوث)، الخ. وقد صاغ داروين نظرية الانتخاب الطبيعي التلقائي (والتي تختلف تماما عن الانتخاب

الاصطناعي الواعي الذي ينفذه الانسان)، والصراع من أجل البقاء، والبقاء للأصلح، الخ، وعلى أساس هذه الفرضيات العلمية فسر داروين التركيب الملائم نسبيا للكائنات الحية وتكيفها مع بيئتها المحيطة. واستند تفسير داروين، الذي استبعد التفسيرات الغيبية، الى قوانين تطور وتحول الكائنات الحية. وبتلخيص المادة التجريبية والعلمية الهائلة التي تجمعت لديه، اكتشف داروين القوانين الحقيقية لأصل وتطور الأنواع وقدم بالتالي، وبصرف النظر عن نواياه الخاصة، واحدا من المتطلبات الأساسية الأولية للمذهب المادي الجدلي.

تلك هي الشروط الاجتماعية الاقتصادية والمصادر النظرية والمتطلبات العلمية الأساسية التي جعلت من ظهور الماركسية وأساسها الفلسفي، المادية الجدلية والمادية التاريخية، أمرا ضروريا من الوجهة التاريخية.

الفصل الثاني
تبلور الماركسية

تبلورت الفلسفة الماركسية كنظرة للعالم خلال عقد واحد تقريباً، في الفترة الممتدة من نهاية ثلاثينيات القرن التاسع عشر الى نهاية الاربعينيات.

وقد نشأ كل من ماركس وانجلس في بيئة برجوازية. فماركس ولد في بلدة تريير في ٥ مايو ١٨١٨ لأب يعمل محاميا، وكان ماركس الأب مناصرا للأفكار الديمقراطية البرجوازية - التقدمية في تلك الأيام - وكان يريد لابنه أن يصبح موظفا في الدولة البروسية.

كذلك نشأ انجلس، مثل ماركس، في مقاطعة الراين، وهي المنطقة التي كانت الرأسمالية الألمانية قد حققت تطورا كبيرا فيها في تلك الفترة. وقد ولد انجلس في ٢٨ نوفمبر عام ١٨٢٠، وكان أبوه واحدا من رجال الصناعة الكبيرة الذين يؤمنون بوجهات النظر السياسية المحافظة واختير له أن يعمل بالتجارة. الا أن العمل في مكتب أبيه لم يمنع انجلس الشاب من الدراسة المستوعبة للفلسفة والتاريخ والعلوم الطبيعية وغيرها من العلوم.

ولقد كان ضروريا، من أجل ابداع أيديولوجية علمية للطبقة العاملة، أن تفند في البداية الأفكار التي سادت في البيئة المحيطة بهما والتي غرست في ذهنهما في الأسرة وفي المدرسة. ولم يكن يكفي مجرد تجاوز الأيديولوجية السائدة. بل كان ضروريا أن تتمثل على نحو نقدي المذاهب الفلسفية والاقتصادية والاجتماعية، وأن تقارن بالواقع

الاجتماعي وأن تتم اعادة بلورتها من مواقع جديدة، وأن تلخص نظريا التطورات الاقتصادية والسياسية الاجتماعية الجديدة: ومنها على سبيل المثال النشاط الثوري للطبقة العاملة، وأزمات فائض الانتاج، الخ

وعلينا أن نميز بين مرحلتين في المسار التاريخي لتبلور الماركسية: **أولا** انتقال ماركس وانجلس من مواقع المثالية والديمقراطية الثورية الى مواقع المادية الجدلية والاشتراكية العلمية، **وثانيا**: صياغة الفرضيات الأساسية للمادية الجدلية والمادية التاريخية والاشتراكية العلمية، وتلك المرحلة اكتملت في أول عملين للماركسية الناضجة: « بؤس الفلسفة »، و« البيان الشيوعي ». وكان نضال ماركس وانجلس المفعم حماسا في الدفاع عن مصالح الطبقات التي تحتل أسفل السلم الاجتماعي، ضد المناصرين الصريحين والمستترين للاضطهاد الرأسمالي واستغلال الانسان للانسان، كان هذا النضال هو القوة الدافعة الأساسية خلف هذا المسار المعقد والمتنوع الأبعاد.

من المثالية والديمقراطية الثورية الى المادية الجدلية والاشتراكية العلمية:

كان العمل العلمي الأول لماركس الشاب هو رسالته لنيل الدكتوراه حول « الفرق بين الفلسفة الطبيعية عند كل من ديموقريطس وأبيقور » والتي نوقشت عام ١٨٤١ وفي هذا العمل كان ماركس ما يزال متبنيا وجهة النظر المثالية الهيجلية. وكان يرى أساس وجوهر تقدم التاريخ في تطور الوعي الذاتي للانسان. الا أن اختيار موضوع الدراسة يكشف نوعا من التحول عن هيجل حتى في تلك الفترة. ففي حين كان هيجل يبدى استخفافا بالفلاسفة الماديين الاغريق وكان ينظر اليهم على أنهم فلاسفة « الوعي العادى »، واضعا في مقابلهم أفلاطون كفيلسوف متميز، نجد ماركس يتصرف على نحو مختلف تماما.

فقد اختار الماديين القدماء لا الفلاسفة المثاليين موضوعا لرسالته.

ويجدر بنا أن نلاحظ أن ماركس قد تخطى في رسالته مواقع المثالية. فقد اعتبر النضال ضد النظرة الغيبية، وضد التخوف من المجهول والقوى الكونية الأخرى المدعى وجودها، اسهاما بارزا يذكر لأبيقور ومدرسته.

وقد امتلأ العمل الكبير الأول لماركس بالاحتجاج السياسي المتقد حماسا ضد الواقع السياسي القائم الذي يستعبد الفرد. وفي مواجهة هذا الواقع، الذي كان بغيضا بوجه خاص في ألمانيا شبه الاقطاعية، طور ماركس الشاب فلسفة كان عليها، في تصويره، أن تقاتل ضد كل الآلهة الدنيوية والسماوية وأن تتمرد، كما فعل بروميثيوس الاسطوري، على هؤلاء الآلهة لتقدم النور والمعرفة والحرية للانسان.

كان هذا الفهم لمغزى الفلسفة ولمهامها غريبا على هيجل والفلاسفة المثاليين الآخرين الذين انطلقوا من المبدأ القائل بأن العالم في وضعه الراهن، معقول. ومجدوا الفلسفة لأنها ترتفع «فوق» أهواء الحياة، ومن ثم ترتفع فوق البحر الدنيوي العاصف. لقد هاجم ماركس الشاب هذا التقليد الفلسفي العتيق الذي ظل أصحاب السلطان يؤازرونه دائما ونظر الى الفلسفة بوصفها «فلسفة الفعل»، وبوصفها القوة الروحية الجبارة المدعوة لا لمجرد «اشباع التطلعات البشرية» بل ولاعادة صياغة العالم من جديد بصورة عقلانية.

وعلى هذا النحو انتقلت الفلسفة الى موقع نقد العلاقات الاجتماعية، بحيث أنه «والى الحد الذي يصبح فيه العالم فلسفيا، تصبح الفلسفة عالمية...»[١٨].

ولقد رفض ماركس وظيفة معلم في جامعة بون وساهم بحماس في الحركة السياسية، ليصبح عام ١٨٤٢ محررا لـ«الرينيش زايتونج»

(١٨) Marx and Engels, from the early works, Moscow, 1956, P.78.(Russ. ed.)

الليبرالية. واعتبر ماركس أن هذا الانتقال الى ساحة العمل الصحفي والنشاط السياسي المفتوح خطوة طبيعية في اتجاه تقريب الفلسفة من الحياة. وفي ذلك يقول ماركس أن الفلسفة لا ينبغي أن تحوم خارج العالم مبقية على طابعها المميز كنوع من «التأمل الخالص». ان على الفلسفة أن تغير رداءها الكهنوتي المتنسك بثياب خفيفة وحديثة. وبدخول ماركس عالم الصحافة كمحرر وكاتب، وباقتحامه عالم العناوين المثيرة التي تخفي وراءها عملية الاضطهاد المنظمة للانسانية، تغيرت الفلسفة لا من حيث الشكل فحسب بل وفي الجوهر أيضاً، فهي الآن تطرح القضايا العملية الملحة بحيث تصبح في متناول العصر. وفي مقالاته الفلسفية المنشورة في «الرينيش زايتونج»، انطلق ماركس من الانتصار للمصالح السياسية والاقتصادية للكادحين، لجمهور الشعب. وانتقد مشروع القانون الاقطاعي حول سرقة حطب الوقود والموجه ضد الفلاحين الذين يجمعون الأغصان المقطوعة من الغابة وفضح الطبيعة الطبقية لهذا القانون، ودافع عن زارعي العنب الذين تسبب ملاك الأرض البروسيين في أفلاسهم، كما دافع عن حرية الصحافة، مناديا بالغاء الرقابة.

وفي كتابات «الرينيش زايتونج» نستطيع أن نرى بداية انتقال ماركس الشاب من المثالية والديمقراطية الثورية الى المادية والاشتراكية. ففي هذه الكتابات هاجم ماركس الدولة البروسية، ورأى فيها مدافعا عن مصالح ملاك الأرض الاقطاعيين، وبالتالي رفض الفهم الهيجلي للدولة أي دولة والقانون أي قانون على أنهما تجسيد للروح الأخلاقية وللحرية، فمن وجهة نظر ماركس لا تصبح الدولة تجسيدا للحرية والروح الأخلاقية الا عندما تمثل مصالح الجماهير لا مصالح أصحاب الملكية الخاصة. ورغم أن ماركس كان لا يزال يتبنى نوعا من التفسير المثالي لطبيعة الدولة، الا أنه اقترب

أكثر من المادية، فاضحا الطبيعة الأساسية للدولة الألمانية التي تسود فيها، كما أوضح، ارداة ملاك الأرض والتي تدافع عن مصالح الأقلية المالكة على حساب الغالبية التي لا تملك.

وفي تلك الفترة على وجه التحديد قال ماركس أن المدافع يمكن أن تنطلق كرد فعل في مواجهة الأفكار الشيوعية الا أن هذه الأفكار لا يمكن اخمادها فنتيجة لتطور الصناعة الكبيرة ستكتسب قضية الشيوعية، كما يرى ماركس، أهمية كبرى بالنسبة لأوروبا كلها كما أنه لا ينبغي تجاهل الاشتراكية لمجرد كونها ترتدي ملابس رثة ولا تفوح منها رائحة العطور

وفي ربيع ١٨٤٣ أغلقت الحكومة البروسية «الرينيش زايتونج» بسبب حملاتها الثورية. ووجد ماركس أنه من المستحيل القيام بأي عمل في ظل النظام البروسي البوليسي الذي يقمع أقل بادرة تظهر للفكر الحر

وفي خريف ١٨٤٣ رحل ماركس الى باريس لكي ينشر بالاشتراك مع «ا روج» (١٨٠٢-١٨٨٠) «الحوليات الألمانية الفرنسية» والتي استطاع فيها، بعيدا عن قيود الرقابة البروسية، أن يعرض آراءه بحرية نسبية. وفي باريس ساهم ماركس بدور بارز في النضال السياسي، ودرس حركة الطبقة العاملة والاشتراكية الطوباوية الفرنسية والانجليزية وتاريخ الثورة البرجوازية الفرنسية وفلسفة الماديين الفرنسيين في القرن التاسع عشر والفلاسفة الماديين السابقين عليهم.

وخلال تلك الفترة، ورغم أن ماركس أبدى تقديرا كبيرا لنضال فويرباخ ضد النزعة الغيبية والفلسفة التأملية، الا أنه لاحظ أيضا بعض أوجه القصور في مذهبه. وقد اختلف ماركس عن فويرباخ في رؤيته للمذاهب الغيبية لا بوصفها مجرد محتوى أرضي أو دنيوي بل

بوصفها أيضا انعكاسا للعلاقات « الدنيوية » بين البشر ، وبذلك اقترب ماركس أكثر من تعريف الرابطة القائمة بين الوعي الغيبي وبين الاضطهاد واستغلال الانسان للانسان.

وفي عام ١٨٤٣ ذهب ماركس الى أبعد من ذلك في موقفه النقدي من فويرباخ فقد كتب يقول: « ان عبارات فويرباخ الحكيمة لا ترضيني ، من حيث أنه يسبغ الأهمية الشديدة على الطبيعة بينما لا يهتم بالسياسة الا في أضيق الحدود. ومع ذلك فان هذا الترابط هو الأرضية الوحيدة المتاحة لكي تنطوي الفلسفة على الحقيقة »[١٩]

وفي عام ١٨٤٣ أيضا ، وبينما كان يعد لنشر الحوليات الفرنسية الألمانية ورغبة منه في تفصيل البرنامج السياسي الأيديولوجي للدورية الجديدة ، هاجم ماركس الفهم الدوجماتيكي (القطعي) للنظرية الاجتماعية وللفلسفة.

ورفض ماركس النظر الى الفلسفة على أنها علم مطلق يقف في مقابل الحياة العملية والنضال ، وأكد أن غاية الفلسفة والنظرية الاجتماعية انما تكمن في « النقد الصارم لكل ما هو موجود ، وهو صارم بمعنيين: فهذا النقد لا يخشى النتائج التي تترتب عليه ، كما أنه لا يهتز أو ينكمش في مواجهة أي صدام مع أصحاب السلطان »[٢٠]

وهو يثير بقوة قضية نفي الفلسفة بالمعنى القديم للكلمة ، أي قضية تجاوز التعارض المقام بين الفلسفة ، بوصفها « علما للعلوم » وبين ما يسمى بالعلوم الوضعية والذي ظل نموذجا طوال الفترات التاريخية السابقة. وفي حين كانت الفلسفات السابقة ترى الغاية النوعية لانجازاتها متمثلة في « تهدئة » الانفعالات أو الأهواء الانسانية ، وفي التحول بالانسان بعيدا عن الصراع لينهمك في تأملات فلسفية باردة

(١٩) Marx and Engels, from the early works, Moscow, 1956, P.257 (Russ. ed.)

(٢٠) Marx and Engels, C. works, Vol.I,P.379 (Russ.ed.)

ورابطة الجأش، نجد ماركس يطرح أمام الفلسفة مهمة مناقضة تماما وفي ذلك يقول ماركس: «وهكذا فلا شيء يمنعنا من أن نربط نقدنا ونوحده بالنضال الواقعي. وفي مثل هذه الحال لن نبدو أمام أنظار العالم كما لو كنا نملك مبدأ جديدا جاهز الصنع: تلك هي الحقيقة، فأركع أمامها»[٢١] ويؤكد ماركس أن مهمة العلم الاجتماعي، والفلسفة بوجه خاص، تتمثل في دراسة وفهم خبرة التاريخ ونضال الجماهير المضطهدة والمستغلة من أجل تحررها الاجتماعي، من أجل أن نكتشف على أساس هذه الخبرة أو التجربة التاريخية القوانين الحقيقية للتقدم الاجتماعي، وذلك بدلا من اختراع كل أنواع الوصفات والبلاسم الشافية، وهو ما فعله العديد من المثاليين الخيريين واليوتوبيين على اختلافهم الذين بحثوا عن حل للمشكلات الاجتماعية داخل تلافيف أدمغتهم.

الحوليات الفرنسية الألمانية لعام ١٨٤٤:

كان نشر العددين الأولين من «الحوليات الفرنسية الألمانية» في مجلد واحد عام ١٨٤٤ حدثا أيديولوجيا على جانب كبير من الأهمية. وقد تضمن هذا المجلد مقالتي ماركس «مساهمة في نقد فلسفة الحق عند هيجل» و«حول المسألة اليهودية» ومقالتي انجلس «موجز لنقد الاقتصاد السياسي» و«الموقف في انجلترا». وتتمثل الأهمية التاريخية لهذه الكتابات في أنها عكست الانتقال النهائي لماركس وانجلس من المثالية والديمقراطية الثورية الى المادية الجدلية والاشتراكية العلمية. وفي هذه المقالات صاغ مؤسسا الماركسية لأول مرة الفرضية الخاصة بالدور الحاسم من الوجهة التاريخية للبروليتاريا كما عرضا المبادىء الأولية للفلسفة الماركسية والشيوعية العلمية.

(٢١) Ibid. p.381.

ففي « مساهمة في نقد فلسفة الحق عند هيجل » يبين ماركس أن التحولات الاجتماعية لا يمكن انجازها من خلال الاكتفاء بتغيير وعي البشر، أو الوقوف عند النقد النظري للعلاقات الاجتماعية البالية. ففي النهاية، ليست القوة المحددة والحاسمة في اعادة صياغة الحياة ثوريا هي النقد النظري أو الفلسفة أو النظرية بوجه عام، وانما هي الثورة، أي القوة المادية. على أن ماركس لا يقلل بحال من الأهمية الخاصة للنظرية. بل على العكس، نجده يوضح أن النظرية تصبح في شروط محددة، وبمعنى ما، قوة مادية في خدمة الجماهير تعزز تضامنها وامكانياتها التنظيمية.

« ان سلاح النقد ليس في مقدروه، بطبيعة الحال، أن يحل محل نقد السلاح، فالقوة المادية ينبغي أن تطيح بها قوة مادية، الا أن النظرية تصبح قوة مادية أيضا بمجرد أن تعرفها الجماهير »(٢٢)

ويبين ماركس كيف أن البروليتاريا هي وحدها القادرة على أن تشكل قوة اجتماعية مادية تملك القدرة على تقويض العلاقات الاجتماعية الرجعية وعلى انجاز التحرير الشامل للانسان. فالبروليتاريا، بموقعها الخاص نفسه داخل بنية المجتمع البرجوازي، هي نتاج هذا المجتمع ونفيه في وقت معا الا أن البروليتاريا تحتاج، لكي تؤدي رسالتها التاريخية الكبرى، الى فلسفة ثورية جديدة ومتسقة على نحو جذري تكشف بعمق جوهر الواقع.

كتب ماركس يقول: « كما أن الفلسفة تجد سلاحها المادي في البروليتاريا، كذلك تجد البروليتاريا سلاحها الفكري في الفلسفة »(٢٣)

وهكذا يدلل ماركس في هذا المقال على الحاجة الى فلسفة للبروليتاريا تختلف كيفيا عن كل الفلسفات السابقة التي لم تمثل ولم يكن في مقدورها أن تمثل السلاح الأيديولوجي للجماهير الثورية.

(٢٢) Marx and Engels, on religion, Moscow, P.50.
(٢٣) Ibid., P.57.

وفي مقال آخر هو « حول المسألة اليهودية » نبذ ماركس الأوهام الليبرالية التي تذهب الى أن « التحرر السياسي » (الاصلاحات الديمقراطية البرجوازية) هو أداة كافية من أجل التحرر الحق للانسان. فقد رأى ماركس في التحرر السياسي تحررا جزئيا وقاصرا من حيث أنه لا يؤدي الى القضاء على سيطرة الملكية الخاصة، ذلك الأساس الذي يبنى عليه التفاوت الاجتماعي والاستغلال والقمع.

ومع تسليم ماركس بالمغزى التقدمي الخاص من الوجهة التاريخية للتحرر السياسي، الا أن ماركس وضع في مقابله « التحرر الانساني »، أي الثورة الاشتراكية التي تقوض دعائم الملكية الخاصة وكل أشكال الاضطهاد والاستغلال.

وقد طور ماركس هذه الأفكار الى مدى أبعد في كتابه الذي لم يتم « المخطوطات الاقتصادية والفلسفية لعام ١٨٤٤ »، وفي هذه « المخطوطات » لم يكن ماركس قد اعتبر نفسه بعد شيوعيا بل كان يسمى مذهبه « النزعة الانسانية الحقيقية » التي تعد نقيضا للنزعة الانسانية البرجوازية المجردة. وفي هذا الكتاب لم تكن أدوات ماركس التعبيرية، فضلا عن بعض فرضياته النظرية، قد تحررت بعد نهائيا من تأثير مادية فويرباخ الأنثروبولوجية، الا أن النتائج الأساسية التي توصل اليها أوضحت أن ماركس قد تجاوز في الأساس ما في تلك الفلسفة من ألوان قصور

والفكرة الأساسية للمخطوطات تقوم على أن العمل أو الانتاج المادي، قد لعب الدور الأساسي في ظهور المجتمع الانساني وفي تطوره اللاحق. الا أن العمل، ونتيجة لطبيعته غير المتطورة - ومع أنه هو الذي ساعد أساساً على ظهور النوع الانساني وتطوره - امتص كل طاقة الانسان ووقته واستعبده. وذلك ما يسميه ماركس « العمل

المغترب »*، وذلك لأن هذا العمل نفسه، والذي يمثل الشرط الأساسي لوجود الانسان وبقائه، يحرم الانسان في الوقت ذاته من فرصة التطوير الشامل لامكاناته واشباع حاجاته. على أن التطور اللاحق للمجتمع يخلق بالضرورة المتطلبات الأساسية لالغاء « العملِ المغترب »، أي لتجاوز التضاد القائم بين العمل والمتعة وبين العمل والتطوير الشامل للشخصية الانسانية. والقضاء على « الاغتراب » (أو الاستلاب) في مجال الانتاج يؤدي أيضا الى استئصال « الاغتراب » في المجال السياسي والروحي، والى الغاء الملكية الخاصة، والتفاوت الاجتماعي، والاستغلال والاضطهاد. وفي ذلك بالتحديد تتمثل « اعادة الصياغة » الشيوعية للعلاقات الاجتماعية.

وقد توصل انجلس، مثل ماركس، الى الاشتراكية العلمية والى النظرة المادية الجدلية للعالم عبر النزعة المثالية وعبر الديمقراطية الثورية. فمنذ ١٨٣٩-١٨٤٠، وفي رسائله لأصدقاء المدرسة الاخوة جرايبر، تحدث انجلس كمؤيد متحمس للديمقراطية الثورية وكخصم عنيد للملكية البروسية وهو يكتب قائلا: « انني أكرهه (الملك البروسي) مثلما أكره شخصين آخرين أو ثلاثة، انني أكرهه كراهية مميتة، ولو أنني لم أكن أحتقر هذا الوغد أشد الاحتقار، لكنت كرهته أكثر وأكثر... أنني لا أتوقع بخصوص الملك شيئا طيبا الا عندما تتوجع رأسه من اللطمات التي يكيلها له الشعب وعندما تتحطم ألواح النوافذ في قصره بيد الثورة »[٢٤]

وفي نهاية عام ١٨٤٢، انتقل انجلس الى بريطانيا، الى مانشستر

(٢٤) Marx and Engels, from the early works, Moscow, 1956,p.337 (Russ. ed.)

*المغترب Alienated من Alienation أي الاغتراب (كما هو شائع) أو اللفظة الأكثر دقة « الانسلاب ». وقد أوردنا اللفظة المرادفة « المغترب » كصفة للعمل لأنها أوضح من « العمل المنسلب » رغم أنها أقل دقة من الوجهة الشكلية (م).

حيث عمل في مصنع الورق الذي كان والده واحدا من المساهمين في ملكيته - وفيما بعد كتب انجلس يقول: «لقد اتضح لي تماما، خلال الفترة التي قضيتها في مانشستر، أن الحقائق الاقتصادية، التي لم يكن لها حتى الآن أي دور واضح أو كان لها دور ذيلي ضئيل في كتابة التاريخ، هي القوة التاريخية الحاسمة - على الأقل في العالم الحديث - وأن هذه الحقائق تشكل الأساس الذي ننأت عنه المتناقضات الطبقية الراهنة، وأن هذه المتناقضات الطبقية - في البلدان التي شهدت تطورها المكتمل بفضل ظهور الصناعة الكبيرة، وعلى الأخص انجلترا تمثل بدورها أساس تشكل الأحزاب السياسية والصراعات الحزبية، وبالتالي كل التاريخ السياسي»[٢٥]

وفي انجلترا بدأ انجلس في دراسة قضايا الاقتصاد السياسي وكتب، قبل أن يلتقي بماركس، دراسة ممتازة هي «مخطط تمهيدي لنقد الاقتصاد السياسي» الذي نشر في الحوليات الفرنسية الألمانية. وفي هذا العمل انتقد انجلس علماء الاقتصاد السياسي البرجوازيين بسبب خضوعهم المطلق «لمبدأ» الملكية الخاصة وأكد، من منطلق نقيض لموقفهم، أن الملكية الخاصة هي المصدر الأساسي لكل التناقضات التي تمزق المجتمع، وقد رأى ماركس في تلك المقالة، في وقت لاحق، دراسة فذة تكشف على نحو يثير الاعجاب الطبيعة الطبقية للمذهب الاقتصادي لكل من سميث وريكاردو. ولم ينفصل نقد الاقتصاد السياسي في دراسة انجلس عن نقد الرأسمالية نفسها. وقد مثل استنتاج انجلس نفيا ثوريا للرأسمالية ولأيديولوجيتها الاقتصادية.

وعلى هذا النحو، توصل ماركس وانجلس مع حلول عام ١٨٤٤، كل في استقلال عن الآخر ومن خلال دراسة بيئات وكتابات

(٢٥) Marx and Engels, sel. works, Vol, 2,P.344.

اقتصادية اجتماعية مختلفة، الى وجهات نظر متطابقة الى حد بعيد حول الحياة الاجتماعية ومهام البروليتاريا ومن هنا بدأت الصداقة التي توطدت بين ماركس وانجلس ثم نضالهما المشترك بعد ذلك ضد الأيديولوجية البرجوازية وصياغتها للنظرية العلمية للبروليتاريا

صياغة المبادىء الأساسية للمادية الجدلية والتاريخية:

في الفترة بين عامي ١٨٤٥و١٨٤٦ كتب ماركس وانجلس عملين بارزين هما :« العائلة المقدسة، أو نقد النقد النقدي » و« الأيديولوجية الألمانية »، وفيهما تعرضا بالنقد والتفنيد للفلسفة المثالية السائدة في ألمانيا، وبخاصة تيار الشباب الهيجلي ومصدرها الأساسي المتمثل في الفلسفة الهيجلية، واضعين في معارضتها نظرتها المادية الجدلية الجديدة للعالم. وقد نشر كتاب « العائلة المقدسة » عام ١٨٤٥ أما كتاب الأيديولوجية الألمانية فلم ينشر كاملا الا في عام ١٩٣٢ في الاتحاد السوفييتي.

وفي المقال الذي تناول فيه لينين « العائلة المقدسة » نجده يميز بوجه خاص المواضع التي صاغ فيها ماركس وانجلس المبادىء الأساسية لنظرتها الى العالم. وأكد لينين بوجه خاص على وجهة نظر ماركس المتبلورة تبلورا كاملا تقريبا حول الدور الثوري للبروليتاريا وعلى تناول ماركس لنظرية العمل المتعلقة بالقيمة كما أشار الى المفهوم المركزي في نسقه كله، وهو مفهوم العلاقات الاجتماعية للانتاج.

وبتطبيق الجدل على عملية تحليل العلاقات الرأسمالية والطبقات في المجتمع في عصرهما، برهن ماركس وانجلس على صحة القانون الموضوعي حول حتمية الصراع بين البروليتاريا والبرجوازية. ويكشف هذا الصراع القانون الأساسي للجدل المادي ووحدة وصراع الأضداد. وقد أوضح ماركس وانجلس، بوصفهما التناقض بين العمل ورأس المال، بأن هناك جانبين لهذا التناقض، الجانب المحافظ

(البرجوازية) والجانب الثوري (البروليتاريا)، وأن تطور هذا التناقض يؤدي لا محالة الى الثورة الاشتراكية. وقد مثل تحليل الجانبين المختلفين للتناقض ودورهما المتعارض في عملية التطور اسهاما هاما لا في نظرية الشيوعية العلمية فحسب بل وفي صياغة الجدل المادي أيضا

وفي مواجهة علماء الاقتصاد السياسي البرجوازيين الذين رأوا في تناقضات المجتمع الرأسمالي مجرد اضطراب مؤقت للوضع الطبيعي السوي، وضع التوازن، أوضح ماركس وانجلس أن الوجود الاجتماعي ذاته يقوم على أضداد يستبعد كل منها الآخر ويحدده. فعلى سبيل المثال، لا يوجد انفصال بين فوضى الانتاج وبين القانون البرجوازي. «ان فوضى المجتمع المدني هي أساس النظام الحكومي الحديث، بالضبط مثلما أن النظام الحكومي هو بدوره ضمان بقاء هذه الفوضى. والى الحد نفسه الذي يتعارض به كل منهما مع الآخر، يحدد كل منهما الآخر أيضا »(٢٦)

وفي نضالهما المشترك ضد الفلسفة المثالية التي سادت في ألمانيا في ذلك العصر وجه ماركس وانجلس اهتمامهما الأساسي لتفنيد الفكرة الرجعية التي عبر عنها أحد مؤيدي تلك الفلسفة والذي كتب يقول أن « العدو الحقيقي للروح ينبغي أن يبحث عنه في جمهور العامة، وليس في أي شيء آخر »: وفي فضحهما لزيف هذا المفهوم، أثبت ماركس وانجلس أن: (١) الأفكار في حد ذاتها، منفصلة عن الحاجات الاجتماعية والمادية، لا تملك تأثيرا، (٢) أن الجماهير، التي يتزايد دورها في تطور المجتمع على نحو طبيعي بمرور الزمن، هي القوة الحاسمة في التطور الاجتماعي، (٣) أن الزعماء التاريخيين البارزين يعبرون عن المقتضيات الاجتماعية وعن مصالح طبقات محددة، وأن

(٢٦) Marx and Engels, the Holy. family or critique of critical critique,P.158.

قيمتهم الحقيقيـة كقادة عظام انما ترجع لهذا السبب على وجه التحديد.

وفي «الأيديولوجية الألمانية» تمثلت مرحلة جديدة في صياغة المباديء الأساسية للمادية الجدلية والمادية التاريخية. ففي هذا الكتاب استكمل ماركس وانجلس نقدهما للفلسفة المثالية الألمانية، وبوجه خاص التفسير المثالي للتاريخ وقد أطلقا على وجهة نظرهما الخاصة فيما يتعلق بالعملية التاريخية الاجتماعية تعبير «الفهم المادي للتاريخ». وفي هذا الصدد، انتقدا فويرباخ موضحين أنه كان ماديا في فهمه للطبيعة، في حين بقي مثاليا في السوسيولوجيا وقد اعتبر ماركس وانجلس نفسيهما ماديين شيوعيين، ونبذا التعبير الغامض أو الفضفاض «النزعة الانسانية الحقة» الذي استخدماه في الفترة السابقة.

وكما أسلفنا القول، كان ماركس قد صاغ على نحو شامل، منذ بداية عام ١٨٤٤، الفرضية الأساسية حول الدور الحاسم للعمل والانتـــاج في تطور الفرد والنوع الانساني في «المخطوطـــات الاقتصادية» والفلسفية لعام ١٨٤٤». وقد عمقت «الأيديولوجية الألمانية» ونقحت هذه الفرضية وقدمت استعراضا موجزا لتطور قوى الانتاج ولعلاقات الانتاج. وفي هذا الصدد أوضح الكتاب أن الصراع بين الطبقات أمر حتمي كما أوضح أن الثورة الاجتماعية هي عملية محكومة بقانون محدد وكذلك الانتقال الى مجتمع لا طبقي مرورا بالثورة الاشتراكية. كذلك أوضح ماركس وانجلس أن الأفكار السائدة في المجتمع هي أفكار الطبقة المسيطرة، وأن الدولة، وبغض النظر عن شكل الحكم (الملكية، أو الجمهورية الديمقراطية، الخ) تمثل دائما نوعا معينا من الديكتاتورية السياسية للطبقة التي تملك وسائل الانتاج. وقد أدت هذه الصياغة للقضية بماركس وانجلس الى فكرة ديكتاتورية البروليتاريا.

وانتقد ماركس وانجلس بشدة الاشتراكية ألبرجوازية الصغيرة الألمانية التي أسماها زعماؤها بطموح كبير « الاشتراكية الحقة ». لقد عارض الاشتراكيون البرجوازيون الصغار -ك.كرين (١٨١٧-١٨٨٧)، م.هيس (١٨١٢-١٨٧٥)، و.لونننج (١٨١٨-١٨٦٨)- بمذهبهم الاشتراكية الطوباوية الفرنسية والألمانية. الا أنهم ودون احراز أي تقدم بالمقارنة مع أتباع سان سيمون وفورييه وأوين (بل على النقيض من ذلك) نبذوا تلك العناصر الأولية للفهم العلمي للحياة الاجتماعية والمثل الأعلى الاشتراكي. على أن هؤلاء اليوتوبيين الألمان، وعلى خلاف سابقيهم من الانجليز والفرنسيين، لم يكونوا ممثلين أيديولوجيين للبروليتاريا الناشئة. وانما كانت نظرياتهم تعكس موقف البرجوازية الصغيرة التي كانت تخشى النتائج المترتبة على تطور الصناعة الرأسمالية الكبيرة والامكانية الكامنة لتحولها الى بروليتاريا ومن هذا كان دعاة « الاشتراكية الحقة » يحلمون باعاقة تقدم الرأسمالية، موحدين بين الاشتراكية ومملكة الملاك الصغار والحرفيين. وقد بذلوا أقصى جهودهم لكي يثبتوا، على عكس ما تقول به الحقائق، أن الحركة الاشتراكية لا ترتبط بحال بالطبقة العاملة وبموقفها واحتياجاتها، وأن المثل الأعلى الاشتراكي هو نتاج «للعقل الخالص ».

كذلك وجه ماركس وانجلس نقدا صارما للتفسيرات التأملية «للاشتراكية الحقة » وأثبتا أن هذا المذهب لا يعكس فحسب التخلف الاقتصادي لألمانيا بل يسعى أيضا لتخليد هذا التخلف.

وهكذا نجد أن ماركس وانجلس كانا يتخذان، في مجرى تبلور الماركسية، موقفا معارضا من الأيديولوجية البرجوازية والأيديولوجية البرجوازية الصغيرة. وكان النضال ضد الاشتراكية البرجوازية الصغيرة، التي طرحا في مواجهتها النقد البروليتاري للمجتمع

الرأسمالي، مرحلة هامة للغاية من مراحل تشكل نظرة ماركس وانجلس للعالم. وهنا تتجلى الأهمية الكبيرة لكتاب « بؤس الفلسفة » الذي نقد فيه ماركس على نحو شامل كتابات برودون (١٨٠٩-١٨٦٥) الاشتراكي البرجوازي الصغير الفرنسي.

وبرودون هو الذي أطلق العبارة الشهيرة: « الملكية سرقة ». الا أنه لم يدخل في عداد الملكية سوى الملكية الرأسمالية الكبيرة، ووضع في مقابلها ملكية المنتج الصغير التي اعتبرها مشروعة وطبيعية بل وزعم أنها تتفق تماما مع الطبيعة الانسانية. وقد هاجم ماركس بقوة هذا المنحى في اضفاء الطابع المثالي على الملكية البرجوازية الصغيرة لوسائل الانتاج، مبرهنا على أن هذا الشكل للملكية لا يؤدي الى التحرر من الاضطهاد الرأسمالي وعلى أنه يتعايش لا مع الاستغلال الرأسمالي للعامل فحسب بل ومع استغلال المالك الصغير نفسه.

لقد أكد برودون أن الملكية الرأسمالية تنشأ نتيجة الاستخدام السيء أو الملتبس لقانون القيمة. كما زعم أنه اكتشف القانون « الحق » و« الصحيح » للقيمة، الذي يمنع، على حد زعمه، امكانية استحواذ الرأسماليين على عمل المنتج. وعلى عكس ما ذهب اليه برودون، أوضح ماركس أن الرأسمالية لا يمكن القضاء عليها من خلال تحسين و« تنقيح » قانون القيمة، بل من خلال الانتقال الثوري الى نظام جديد لعلاقات الانتاج ينطوي على قوانين موضوعية من نوع جديد.

وقد وقف برودون موقفا سلبيا من حركة الطبقة العاملة والنضال الثوري ضد الرأسمالية. وأكد أن الطريق الوحيد للقضاء على الرأسمالية بالنسبة لصغار المنتجين هو أن يرفضوا استخدام النقود وأن ينتقلوا من هذا الأسلوب الى التبادل المباشر لمنتجات عملهم. ولم يفهم برودون أن جذر الداء لا يتمثل في النقودْ، وانما في الملكية الخاصة

لوسائل الانتاج. فتلك الكمية تشكل أساس اقتصاد السلعة - النقود والذي يستحيل فيه التبادل المباشر (اللانقدي) للمنتجات.

وقد أطلق برودون على نفسه صفة المفكر «الجدلي وزعم أنه يملك منهج الجدل الهيجلي المطور علميا لكن الجدل كان بعيدا تماما عن برودون، كما أوضح ماركس: فهو ينظر الى مقولات الرأسمالية على أنها أزلية وثابتة وان كانت قد حرفت نتيجة للتطبيق الخاطىء

كذلك تحدث برودون كثيرا عن التناقضات الجدلية للرأسمالية الا أنه فهمها على نحو شديد التبسيط. فقد أكد، على سبيل المثال، أن التناقض الرئيسي للرأسمالية يتمثل في أنها تنطوي على جانبين أو وجهين متعارضين: الخير (الثروة) والشر (الفقر). ويؤكد برودون أن من الضروري أن ننبذ الجانب السيء أو الشرير للرأسمالية مع الحفاظ على جانبها الخير أو الطيب. ولم يدرك برودون أن الثروة في شكلها الرأسمالي (الملكية الخاصة لوسائل الانتاج) تؤدي لا محالة الى نشوء الفقر، في حين يؤدي الأخير (افتقار الغالبية العظمى من الشعب العامل الى وسائل الانتاج) الى خلق الثروة التي يمتلكها الرأسماليون وكل من الجانبين يرتبط ارتباطا وثيقا بالآخر وعلى ذلك يصبح ضروريا رفض النظام الرأسمالي بدلا من الاستغراق في حلم تنقيحه. وقد وصف لينين «بؤس الفلسفة» بأنه العمل الأول للماركسية الناضجة.

جوهر الثورة التي أحدثتها الماركسية في العلم الاجتماعي:

تتيح دراسة الشروط التاريخية والمصادر النظرية والمتطلبات الأساسية لظهور الماركسية والتي قدمها العلم الطبيعي وكذلك تتبع المراحل الرئيسية لتبلور الفلسفة الماركسية، تتيح امكانية أن نحدد على نحو مختصر ملامح الثورة التي أحدثها ماركس وانجلس في مجال العلوم الاجتماعية.

والنقطة الأساسية في هذا الصدد هي أن ماركس وانجلس قد أبدعا نظرة علمية للعالم والتي تشكل المادية الجدلية والتاريخية أساسها الفلسفي وهذه النظرة للعالم لا تقوم في معارضة العلوم الأخرى، بل على العكس، انها تلخص نظريا معطيات هذه العلوم كما تعكس الدرجة التي بلغها تطورها، وهي تنبني على مجمل المعرفة العلمية التي راكمها النوع الانساني. أن العلوم لا تكف عن التطور، وهي تتطور وتغتني باستمرار بالاكتشافات الجديدة، والنظرة الماركسية العلمية للعالم تتطور على نحو مطرد ومستمر في اتساق مع المعطيات العلمية الجديدة، معارضة بصورة حازمة أي نروع قطعي

ان النظرة الماركسية للعالم هي نظرة علمية، وذلك هو السبب في أنها لم تضع نفسها، وهو ما فعلته المذاهب الفلسفية السابقة، كنقيض للممارسة العملية، وانما على عكس ذلك تؤدي دور الدليل المرشد في النشاط السياسي، انها تلخص معطيات الممارسة وتحلل التجربة التاريخية للتطور الاجتماعي ونتيجة لذلك تسلح الممارسة بالنظرية المرشدة. يقول ماركس وانجلس «ان نظريتنا ليست معتقدا جامدا، وانما هي دليل مرشد للفعل

والنظرة الماركسية الليبيية العلمية للعالم لا تشمل الطبيعة وحدها وانما تشمل المجتمع أيضا، وهي تشكل الأساس النظري للعلم الاجتماعي. ويمثل الاقتصاد السياسي الماركسي والاشتراكية العلمية عناصر مكونة أساسية في هذا العلم الاجتماعي. لقد أحدث ماركس وانجلس ثورة أصيلة في المذاهب الاقتصادية والاجتماعية، اذ أقاما هذه المذاهب على أساس علمي لتتحول الى علوم خلاقة تتطور على نحو متسق ومتماسك. ولقد قدمت النظرة الماركسية اللينينية للعالم فهما علمياً لا يقتصر على التاريخ السابق للانسانية فحسب، بل يمتد أيضاً ليشمل مستقبلها.

الفصل الثالث

الفلسفة الماركسية:
علم القوانين العامة التي تحكم
تطور الطبيعة والمجتمع والمعرفة

لا يمكن للفلسفة، في رأي ماركس وانجلس، أن تصبح ولا ينبغي لها أن تصبح «علما مطلقاً» يزعم أنه «يحل كل الألغاز». فالمعرفة الفلسفية، شأنها شأن كل معرفة للواقع، تتطور باستمرار وبالتالي لا يمكن أن تكتمل على نحو نهائي ومطلق. والحقائق المطلقة، رغم أنها توجد بالفعل، الا أنها تتأثر بنتائج تطور المعرفة في الفترة التاريخية المعينة. ومن ثم فان هذه الحقائق لا يمكن أن تعد، في التحليل الأخير، حقائق مطلقة. والفلسفة ليست علماً للحقيقة المطلقة، على عكس ما أكد فلاسفة عديدون سابقون على الماركسية، والذين وضعوا الحقائق الفلسفية (المطلقة) في مقابل الحقائق العلمية (النسبية).

ولكن ما هو الموضوع الأساسي للفلسفة الماركسية؟ وما الذي يميزها عن العلوم الأخرى؟ وما هو موقعها في نسق المعرفة العلمية؟

ان لكل علم موضوعه الأساسي النوعي، وهو يدرس أحد الأشكال المحددة لحركة المادة، ويعزل أوجها (أو مجالات) محددة كيفيا لعملية أو لأخرى، ولصنوف محددة ومعينة من الظواهر، الخ. فالبيولوجيا تدرس الكائنات الحية - النبات والحيوان - وهي تنقسم بالتالي الى علم النبات وعلم الحيوان. وينقسم علم النبات بدوره الى

فروع منفصلة: **المورفولوجيا**، الذي يدرس الشكل الخارجي للنباتات، **علم التصنيف**، الذي يصنف النباتات ويصف أجناسها المختلفة، **والتشريح**، الذي يتناول بالبحث تركيب النباتات، **والفسيولوجيا**، التي تدرس العمليات الحيوية في النباتات. **والانتخاب**، الذي يستكشف طرائقا جديدة لخلق أشكال نباتية جديدة، الخ.

وكل علم، بل وكل فرع منفصل داخل هذا العلم، يميز ويعزل الموضوع الأساسي لبحثه الخاص عن تلك التي تدرسها العلوم الأخرى. فالبيولوجيا لا تبحث في الحالات المختلفة للمادة (الصلابة، السيولة، الحالة الغازية)، كما أن الاقتصاد السياسي لا يدرس خصائص السلع من نفس الزاوية التي يدرسها منها علم السلع على سبيل المثال.

وبطبيعة الحال، فان التطور وتقسيم العمل في حقل المعرفة العلمية قد نتج عنها أن أصبحت العلوم المختلفة وفروعها مستقلة نسبيا كل منها عن الأخرى. فعلى سبيل المثال، لا يتعين على عالم النبات أن يكون متخصصاً في الميكانيكا أو في تكنولوجيا المعادن.

الا أن العلم وفروعه المختلفة المتمايزة لا يمكن أن تنفصل عن بعضها على نحو مطلق، وذلك لأن الأشكال المختلفة لحركة المادة والتمايزات والسمات والخصائص والحالات المتباينة لها والتي تدرسها العلوم المنفصلة لا توجد واقعيا في حالة انفصال أو تمايز انها تترابط وتشترط كل منها الأخرى كما يتحول كل شكل منها الى الآخر فالحركة الميكانيكية للمادة، على سبيل المثال، تتحول الى حركة حرارية، أو كهربية، أو كيميائية، الخ. وبالتالي فلا بد من أن تترابط فروع العلم التي تدرس هذه الأشكال لحركة المادة. فالبيولوجيا الحديثة تعتمد على أبحاث علم الكيمياء وهي تستخدم أيضاً معطيات علم الفيزياء والرياضيات وغيرها من العلوم.

وهنا نتساءل ما الذي يمكن العالم، من أي تخصص علمي محدد،

من أن يوجه نفسه في المعطيات العلمية، التي لا تنتمي للموضوع الأساسي لبحثه، ويمكنه أيضا من أن يستخلص من الفروع الأخرى المعطيات اللازمة لمجال بحثه الخاص؟ صحيح أن ثقافته العلمية العامة تسهل الى حد ما هذه العملية، وكذلك دراسته للموضوعات المرتبطة ببحثه. على أن هذا كله لا يكفي لكي يوجه نفسه وسط مشكلات أو قضايا علمية متنوعة. ولكي يتم مثل هذا التوجيه يحتاج الباحث للأفكار العلمية حول القوانين العامة للطبيعة والمجتمع، تلك المفاهيم التي تقدم تأليفا نظريا لجماع المعرفة التي راكمها النوع الانساني. ومثل هذه الحصيلة الاجمالية لوجهات النظر العامة في الطبيعة والمجتمع تؤلف النظرة العلمية للعالم وعلى هذا النحو تشكل المادية الجدلية والتاريخية النظرة العلمية المعاصرة للعالم.

وفي حين تقسم العلوم المختلفة، وهو ما يتفق مع طبيعة مهامها الخاصة، الصورة الواحدة للعالم، تسعى الفلسفة الماركسية الى أن تقدم الصورة النظرية الواحدة للعالم. وهي تتقدم، فضلا عن ذلك، من الفرضية التي تؤكدها الممارسة والقائلة بأن العالم هو كيان واحد متماسك، وأن وحدة هذا العالم بالمعنى الواسع للكلمة ليست تجريدا وإنما هي واقع فعلي.

لكن كيف يمكن لنا أن ندرس العالم بوصفه كينونة أو كيانا واحدا؟ من الواضح أن التجميع البسيط للمعرفة المتاحة هو أمر غير ممكن وغير ضروري في آن معاً. ألا توجد قوانين عامة تنطبق بالتساوي على الطبيعة والمجتمع كما تنطبق على معرفة كل شيء موجود؟ ان الفلسفة الماركسية تطرح هذا السؤال وهي تجيب عليه بالايجاب.

فما هي هذه القوانين العامة؟ هل تؤلف صنفا معيناً، فلنقل مثلاً، عالم القوانين التي تقع في مرتبة أعلى من القوانين البسيطة للطبيعة

والمجتمع والمحددة في الزمان والمكان؟ بالطبع لا لقد كتب انجلس يقول أنه ليس هناك وجود لما يسمى «المادة بوجه عام»، أو المادة بما هي كذلك. أي المادة منفصلة ومستقلة عن الأشياء المادية الواقعية والشيء نفسه ينطبق على القوانين العامة التي تدرسها الفلسفة الماركسية: **فهذه القوانين تتجلى في القوانين النوعية التي تحكم كل مجال أو وجه منفصل في الظواهر، وهي تعبير عن جوهر القوانين الجزئية التي تدرسها مختلف العلوم.**

فكل القوانين النوعية التي تدرسها العلوم المختلفة هي في الواقع قوانين للحركة والتغير والتطور أما القوانين العامة، والتي تؤلف الموضوع الأساسي للمادية الجدلية والمادية التاريخية، فهي قوانين للتطور ولسنا بحاجة الى القول بأن الفلسفة الماركسية لا تحصر نفسها في مجرد تأكيد الحقيقة القائلة بأن كل شيء يتحرك ويتغير ويتطور، وانما هي تدرس قوانين التطور وأشكاله العينية المتنوعة. فعلى أساس من الحقيقة القائلة بأن كل جوهر طبيعي موجود في حالة صلبة أو سائلة أو غازية له حد أقصى (أو حد أدنى) من درجات الحرارة ينتقل عنده من حالة الى أخرى، وكذلك الظاهرة التي توضح العلاقة بين التغيرات الكمية والكيفية في عملية (أو مسار) التطور، استخلصت الفلسفة الماركسية النتيجة القائلة بأن التغيرات الكمية المتدرجة تؤدي حتماً الى تغيرات كيفية أساسية.

ونسوق هنا مثالاً آخر حول العلاقة بين الأضداد. فلا ريب أن الأضداد موجودة بالفعل، بل هي توجد، فضلا عن ذلك، داخل عمليات لها طابع واحد. فكل منا يوافق على أن هناك تعارضا بين الخير والشر، وبين الحقيقة والوهم، وبين العام والخاص، والضروري والعرضي، وبين الموضوعي والذاتي،.. الخ. الا أن نظرة أعمق لهذا الموضوع، والتي عبر عنها بالفعل الفلاسفة الاغريق، تشير الى الطبيعة

النسبية لمثل هذا التضارب. وتؤكد المادية الجدلية أن الأضداد يستبعد كل منها الآخر ويحدده في آن معا. ومثل هذه العلاقة بين الأضداد تمثل تناقضا موضوعيا موجودا يتم حله من خلال ترابط («صراع») الأضداد، وتحولها وتغيرها المتبادل. الخ. ومن المعروف بوجه عام أن الجاذبية والتنافر والشحنة الموجبة والشحنة السالبة وحالة الثبات والحركة تترابط على نحو لا انفصال فيه الا أن وحدة الأضداد، وتحولها المتبادل، لا تحدث في هذه العمليات فحسب: بل أن لها طبيعتها الشاملة.

وتفهم المادية الجدلية التطور على أنه عملية متناقضة. وذلك ينطبق على الطبيعة وعلى المجتمع، الذي يتقدم فيه الصراع بين الجديد والقديم، بين التقدمي والرجعي بخطى ثابتة وتتيح دراسة ظواهر الطبيعة والمجتمع في ترابطها المتبادل وفي حركتها وتطورها امكانية معرفة هذه الظواهر علمياً وامكانية استكشاف منشأها وادراك اتجاه تطورها في المستقبل. وتذهب المادية الجدلية الى أن الحقيقة عينية وأنه لا وجود لحقيقة مطلقة. وذلك يعني أن في الامكان ادراك أية ظاهرة اذا تم بحثها في ارتباطها بالظواهر الأخرى وليس في انعزال عنها، واذا تم تحليل حركتها وتغيرها وتطورها. ولنورد هنا مثالا بسيطا. من الشائع أن الماء يغلي عند درجة ١٠٠ مئوية وذلك صحيح طالما كنا نشير الى الغليان في الضغط العادي وعندما يكون الماء نقيا من الوجهة الكيميائية. أما في الضغط الجوي الأعلى من ذلك (على سبيل المثال، في غلاية بخارية) فان الماء يغلي عند درجة حرارة أعلى في حين أنه يغلي عند درجة أقل في الجو المفرغ من الهواء. وعلى ذلك، وبناء على تلك الشروط المختلفة قد يغلي الماء، نظريا، عند أية درجة من درجات الحرارة.

ومثال آخر، لقد نشأت الملكية الخاصة والاستغلال والعبودية في

حقبة شهدت تحلل المجتمع المشاعي البدائي. ومنذ ما يزيد على ألفي عام كانت العبودية والملكية الخاصة والاستغلال تمثل ظواهر تقدمية، **أي أنها مثلت صيغة ضرورية من أجل تطور الانتاج الاجتماعي.** واليوم، وبعد أن وصل الانتاج الاجتماعي الى درجة عالية جدا من التطور، وبعد أن وصلت الميكنة والأتمتة (من الصفة أوتوماتيكي) واستخدام الكهرباء والآلات السيبرنطيقية بانتاجية العمل الى مستوى رفيع، أصبحت الملكية الخاصة لوسائل الانتاج والاستغلال عائقا أمام تطور المجتمع وهكذا نجد أن التناول العيني من الوجهة التاريخية لدراسة الظواهر هو الذي يمكننا من التقييم الصحيح لهذه الظواهر

ان وحدة النزعة المادية والجدل (وارتباطها والتحامها الوثيق) هو السمة الأساسية المحددة للفلسفة الماركسية. وعادة ما يؤكد خصومها أن الجدل والنزعة المادية متعارضان أساساً. وهم يفترضون ضمناً أن الجدل المثالي هو وحده الممكن في حين تتصف النزعة المادية أساساً بأنها غير جدلية.

وبداية نقول أن هذه الحجة لا صحة لها مطلقا من الوجهة التاريخية، فغالبية الماديين الاغريق كانوا جدليين. صحيح أن جدلهم كان بدائيا وفجا، على أن ذلك يعود أساساً الى أنه لم يكن يقوم على معرفة علمية. لكن ماركس وانجلس لم يهدفا الى الربط بين الجدل والنزعة المادية في أشكالها الفلسفية الماضية. لقد صاغا من جديد جدل الفلسفة السابقة مثلما صاغا من جديد النزعة المادية.الميتافيزيقية السابقة عليها وأغنياها بمحتوى جديد. وكفًّا الجدل والنزعة المادية، في الفلسفة الماركسية، عن أن يكونا مذهبين فلسفيين مختلفين مستقلين عن بعضهما، وتحولا الى نظرية مادية جدلية واحدة.

وفي الفلسفات السابقة على الفلسفة الماركسية، لم يكن الجدل، حتى

في تلك الحالات النادرة التي تطور فيها في مذاهب مادية يعد المبدأ الأساسي للقوانين العامة للطبيعة والمجتمع والمعرفة. ومن ناحية أخرى كان ينظر الى الجدل، في الحالات التي تطور فيها على يد فلاسفة مثاليين، بوصفه مذهبا للعملية الروحية ولتطور المعرفة المنطقية، الخ. وكان ماركس وانجلس أول من أثبت ودلل نظرياً على **شمولية العملية الجدلية وعلى الوحدة الجدلية للفكري والمادي وللمجتمع والطبيعة.**

ان الجدل يمثل، من وجهة نظر ماركس وانجلس، عملية الحركة الذاتية والتطور الذاتي ووحدة وصراع الأضداد، الكامنة في المادة وفي الطبيعة. والجدل بوصفه نظرية هو انعكاس علمي للعملية الجدلية الموضوعية الجارية في العالم. يقول انجلس: « يسود الجدل، أو ما يسمى الجدل **الموضوعي** في الطبيعة، وليس الجدل الذاتي (الفكر الجدلي) سوى انعكاس للحركة خلال الأضداد والتي تؤكد **نفسها في كل جوانب الطبيعة** »(٢٧)

ويوضح تاريخ الفلسفة أن كل المذاهب الفلسفية، ورغم ما بينها من اختلافات، تنبني على الحل المادي أو الحل المثالي لمشكلة العلاقة بين الروحي والمادي، وبين السيكولوجي والفيزيائي، وبين الذاتي والموضوعي. فتلك المشكلة هي القضية الأساسية في كل فلسفة. ولقد قدمت الفلسفة المادية السابقة على الماركسية صنيعا تاريخيا عظيما عندما درست بامعان ودأب الصلة القائمة بين الوعي الانساني والجسم الانساني وبين الوعي والعالم الخارجي. واستطاع الفلاسفة الماديون فيما قبل الماركسية، مستبقين في ذلك الاكتشافات اللاحقة للعلوم الطبيعية، أن يدللوا على أن الفكر والوعي والروحي بوجه عام ماهية غير متجاوزة للطبيعة وغير متجاوزة للانسانية وأنها تمثل، من

(٢٧) Engels, dialectics of nature, Moscow, P.280.

ناحية، خاصية متميزة للمادة المنظمة على نحو خاص، وانعكاساً لواقع العالم الخارجي المحيط بالانسان من ناحية أخرى. الا أن هؤلاء الماديين لم يثيروا قضية تطور الروحي وذلك لأنهم لم يدرسوا المادة بوجه عام في تطورها الذي يؤدي في مرحلة معينة منه الى ظهور الوعي. كذلك لم يدرسوا تطور الوعي الانساني والفكر الانساني في ارتباطها بالتطور الاجتماعي.

لقد أثبت ماركس وانجلس من وجهة نظر مادية جدلية أن المادي هو الأولي وأن الروحي هو الثانوي، ودللا على افلاس كل مفاهيم الفلسفة الطبيعية حول المادة الأصلية والجوهر الأول، الذي يؤلف الأساس الأولي أو العنصر الأصلي لكل الأشياء الموضوعية المدركة بالحواس. فلا وجود لعنصر أصلي أو أولي ولا وجود لمادة أصلية أو أولية وكون الروحي هو الثانوي انما يعني بالتحديد أنه نتاج لتطور المادة الموجودة خارج الوعي وفي استقلال عنها. على أن المادية الجدلية لا تسلم فحسب بالانتقال من المادي الى الروحي أو المثالي، بل تسلم أيضاً بانتقال المثالي أو الروحي الى المادي، والذاتي الى الموضوعي. فالأفكار والأهداف والطموحات الانسانية، بل والأحلام أيضاً، تتحول يوميا الى واقع مادي.

وقد بين لينين أن الاخفاق الرئيسي للفلسفة المادية السابقة على الماركسية تمثل في افتقارها الى القدوة على تطبيق الجدل على نظرية المعرفة. فالفلاسفة الماديون السابقون على الماركسية نظروا الى المعرفة على أنها نتيجة لتأثير موضوعات العالم الخارجي في حواسنا. ثم جاء ماركس وانجلس ليثبتا، من منطلق التسليم بهذه المقدمة الأساسية، أن المعرفة تفترض في الوقت ذاته تأثير العالم الخارجي في الانسان وتأثير الانسان في العالم الخارجي، أو بعبارة أخرى، النشاط العملي.

وفي وصفهم لعملية المعرفة، حصر الفلاسفة الماديون السابقون على

الماركسية اهتمامهم في دراسة الذات المفردة التي تحس وتدرك وتفكر لتملك بالتالي القدرة على معرفة الواقع المحيط بها ومع تفهم المادية الجدلية التام لهذه الحقيقة الأساسية والواضحة الا أنها نظرت الى نظرية المعرفة بوصفها مذهبا لعملية المعرفة الخاصة بالنوع الانساني في مجرى تاريخه. ومن هذا المنطلق يصبح الهدف الأساسي لنظرية المعرفة هو تلخيص واستخلاص عملية الانتقال من الجهل الى المعرفة ونتائجها، أي المعرفة التي راكمها النوع الانساني. وهكذا أصبح ينظر الى المعرفة بوصفها عملية تاريخية اجتماعية لا ترد الى نشاط وفاعلية الأفراد المنفصلين والمنعزلين، أيا كانت انجازاتهم العملية. وهكذا تدرس النظرية الماركسية اللينينية في المعرفة، بدراستها للعملية التاريخية الاجتماعية للمعرفة، القوانين العامة لتطور العلم، وعملية المعرفة العلمية ومناهجها وأشكالها

وتطرح نظرية المعرفة في المادية الجدلية على نحو جديد تماماً، وانطلاقاً من الافتراض الذي أثبت الماديون السابقون على الماركسية صحته والقائل بأن كل معرفتنا تنشأ عن التجربة الحسية، تطرح قضية العلاقة بين الحسي والعقلي. فقد اعتبر ماركس وانجلس المعرفة النظرية مستوى أعلى من المعرفة يختلف كيفيا عن الانعكاس الحسي للعالم الخارجي، مستوى لا يمكن رد محتواه الى المعطيات الحسّية، أي الى الأشياء التي نراها ونسمعها ونلمسها، الخ. وعلى ذلك فرغم أن الفرضيات النظرية تنبني على المعطيات الحسية الا أنها تؤلف انعكاساً أكثر عمقاً للواقع وهي تمثل بالتالي - والى حد معين - نفيا (أو سلبا) جدليا لدواعي وجودها الأساسية التي توفرها المعطيات الحسية.

وهذا التناقض بين الاستنتاجات النظرية وبين المعطيات الحسية لا يهون بحال من شأن هذه المعطيات. بل على العكس، فهي تنشأ نتيجة لدراسة هذه المعطيات الحسية وتحليلها واختبارها لكن طالما

أن الفكر، الذي يعكس العالم في صورة مفاهيم وتجريدات علمية، لا يتطابق على نحو مباشر مع الحس، فسيتلو ذلك أن الحس لا يصلح معيارا لحقيقة الفكر الا أن الفكر (أو التفكير) أيضا لا يصلح معيارا لحقيقة المدركات الحسية، نظرا لأنه ينشأ في النهاية عن هذه المدركات. اذن ما هو معيار الحقيقة في تلك الحالة؟ لقد أخفق الفلاسفة السابقون على الماركسية في تقديم الاجابة الصحيحة على هذا السؤال. وأكد بعضهم أن الفكر هو معيار الحقيقة بينما أكد آخرون أن المدركات الحسية هي التي تشكل هذا المعيار أما ماركس وانجلس فقد دللا على أن المعيار الوحيد للحقيقة هو الممارسة العملية التي يتحقق في أشكالها المتنوعة (بدءاً من الملاحظة والقياس باستخدام الأدوات والآلات وانتهاء بالعملية التاريخية الاجتماعية) من مدى صحة ودقة مشاعرنا وأفكارنا ومفاهيمنا وتفسيراتنا النظرية.

انشاء علم المجتمع

مثل انشاء المادية التاريخية مأثرة علمية كبرى من مآثر ماركس وانجلس. فبفضلها، أصبحت الفلسفة المادية نظرية شاملة لا تتناول الطبيعة فحسب بل والمجتمع أيضاً.

وكان الفلاسفة الماديون القدامى فيما قبل الماركسية يحصرون اهتمامهم في فهم الطبيعة. ولم يكد بعض هؤلاء الماديين الذين سبقوا ماركس يبدأون في دراسة الحياة الاجتماعية حتى تخلوا عن المنطلقات الأساسية للنزعة المادية وعالجوا وعي البشر والبواعث الأيديولوجية لتصرفاتهم بوصفها القوة الأساسية المحددة للعملية التاريخية. ولم يدرك الماديون السابقون على المادية الماركسية الأساس المادي الاقتصادي للحياة الاجتماعية وكان محتما أن يتوصلوا الى فهم مثالي للتاريخ يجعل الأهمية الحاسمة للنشاط العملي (والانتاجي بالذات) والنشاط

السياسي الاجتماعي للبشر.

ويقدم الفلاسفة الماديون الفرنسيون في القرن الثامن عشر مثالا واضحا على مثل هذا الفهم للتاريخ. فقد بدا التاريخ في نظرهم سلسلة من الأحداث والحوادث يتبع كل منها الآخر دون أن تترك أي تأثير في الطبيعة الانسانية «الثابتة».

ومع تسليمهم بأن لكل حدث في الحياة الاجتماعية أسبابه المحددة، الا أن الفلاسفة الماديين الفرنسيين لم يفرقوا بين الأسباب الأساسية وغير الأساسية. فكل الأسباب في نظرهم تنطوي على نفس الأهمية. وقد ظنوا أن أية حبة من الرمال على شاطىء البحر، أو طموح أي قائد جيش، أو نزوة امرأة، يمكن لأي منها أن تشكل مصدرا وسببا لأضخم الأحداث في تاريخ البلدان والشعوب. وانتهى بهم هذا الاخفاق في فهم واستكشاف الأسباب الحقيقية للأحداث التاريخية الى النزعة الجبرية، أي الى القول بأن كل حادث يقع لم يكن ممكناً له أن يأتي على نحو مخالف، وبأن البشر لا يملكون القدرة على التأثير في مجرى التاريخ.

وربما بدا أن المؤرخين كانوا أقرب من غيرهم الى الفهم العلمي للتاريخ: فهم لا ينخرطون في مجادلات تأملية فيما يتعلق بطبيعة المجتمع، والتقدم، الخ، بل يقتصر عملهم على وصف الأحداث التاريخية في ضوء كافة أنواع الوثائق والملاحظات الشخصية. والواقع أن هذا المنحى في التفكير ينطوي على تصور خاطيء صحيح أن هذه الكتابات التاريخية مثلت وصفا تجريبيا للأحداث والوقائع وذلك ما أضفى عليها قيمة حقيقية، ومع ذلك فان هؤلاء المؤرخين، وبمجرد شروعهم في محاولة تقييم الأحداث الموصوفة واختبار صحة أسبابها وشروطها ونتائجها، فان غياب المنهج العلمي في فهم التاريخ ينكشف في الحال. وبحكم خضوعهم لسيطرة النزعة المثالية يبحث هؤلاء

المؤرخون عن أسباب الأحداث التاريخية في شخصيات الملوك وقادة الجيوش، وهم يجهلون دور الجماهير في التاريخ، ولا يهتمون على الاطلاق بالانتاج المادي.

وقد حاولت مدرسة المؤرخين الفرنسيين في الفترة من ١٨١٦ الى ١٨٤٨ تييرى (١٧٩٥-١٨٥٦)، مينيه (١٧٩٦-١٨٨٤)، جيزو (١٧٨٧-١٨٧٤) أن تتغلب على هذا القصور في فهم التاريخ. فتاريخ فرنسا ما قبل الثورة وفرنسا الثورية هو في نظرهم تاريخ الصراع بين ما سمى بالطبقة الثالثة (أي البرجوازية والفلاحين والعمال) وبين الطبقتين الأولتين (النبلاء والكهنة) اللتين سادتا المجتمع الاقطاعي. وقد وصفوا صراع الطبقات في فرنسا في تلك الأيام، مدللين على أن ثورة ١٧٨٩ هي التجسيد الأعظم لهذا الصراع القائم على مصالح اقتصادية وعلى رغبة «الطبقة الثالثة» في اقامة المجتمع المدني، والقضاء على امتيازات الطبقتين الحاكمتين، الخ. الا أن هؤلاء المؤرخين أنكروا وجود تناقضات طبقية داخل صفوف «الطبقة الثالثة» وبذلوا أقصى جهدهم ليثبتوا أن الثورة بقضائها على الطبقات السائدة قد أنهت بذلك على كل تفاوت اجتماعي وبالتالي على الطبقات نفسها أيضاً كذلك أدانوا بصورة حازمة نضال البروليتاريا ضد البرجوازية في الفترة التالية للثورة. لقد بقى تييرى ومينيه وجيزو في النهاية مفكرين مثاليين، وذلك لأنهم اقتنعوا بأن وعي البشر ومعتقداتهم هي العوامل التي تشكل القوة المحركة للعملية التاريخية الاجتماعية.

ولقد أوضح لينين أن كل المذاهب السابقة على الماركسية حول المجتمع، تنطوي على سمتين مميزتين أساسيتين: **أولاً**، ففي أفضل الأحوال، لاحظت هذه المذاهب وأدركت فحسب الدوافع الأيديولوجية والسيكولوجية للنشاط الانساني، دون أن ترى السبب

المادي الأكثر أساسية، ثانياً، تجاهلت هذه المذاهب الدور الحاسم للجماهير في تاريخ العالم.

فكل هذه المذاهب السابقة على الماركسية والخاصة بالمجتمع أنشأها أيديولوجيون ينتمون الى الطبقات المالكة. ومن هنا فلا غرابة في أنهم هونوا من شأن الدور الذي تلعبه الجماهير في التاريخ والأهمية الأساسية بل والحاسمة للانتاج المادي.

وقد كتب ماركس وانجلس يقولان: «في كل المحاولات التي بذلت حتى الآن لصياغة تصور للتاريخ، فان هذا الأساس الواقعي (أو الحقيقي) الذي يقوم عليه التاريخ اما أهمل كلية أو أعتبر مسألة ثانوية لا تؤثر في شيء في مجرى التاريخ. وعلى ذلك فان التاريخ لا بد دائماً أن يكتب طبقاً لمقياس عارضي وهامشي، ان الانتاج الواقعي للحياة يتبدى بوصفه شيئاً ينتمي للتاريخ السحيق في حين يظهر ما هو تاريخي حقيقة كما لو كان منفصلا عن الحياة اليومية، وكما لو كان شيئاً مفارقا للطبيعة. وعلى هذا النحو تستبعد العلاقة بين الانسان والطبيعة من التاريخ، وبهذا ينشأ التعارض بين الطبيعة والتاريخ. ولم يكن في مقدور المدافعين عن هذا الفهم أن يدركوا في التاريخ سوى الأفعال السياسية للأمراء والدول، والصراعات الدينية وكافة أنواع الصراعات النظرية، كما أنهم شاركوا كل الحقب التاريخية التي تناولوها «القناعة بكل أوهام تلك الحقب»[٢٨]

لقد حصر السوسيولوجيون فيما قبل ماركس اهتمامهم الأساسي في تلك الصياغة المبسطة لحقيقة أن البشر لا يستطيعوا أن يمارسوا حياتهم دون أن يمارسوا الانتاج المادي وعلى ذلك فسيكون على بعضهم أن ينتج الغذاء، والملابس، الخ. ولم يدركوا أن تطور الانتاج المادي لم يسفر فحسب عن تلبية الاحتياجات الأساسية للبشر، وانما حكم أيضاً

(٢٨) K. Marx and E. Engels, german Ideology, P.51.

التطور الانساني نفسه وتطور القوى الرئيسية للانتاج وتطور العلم. وفضلاً عن ذلك، فإن الانتاج المادي هو الذي يحدد في النهاية طبيعة العلاقات الاجتماعية والتكوين أو التركيبة الاجتماعية للمجتمع. ان الانتاج المادي يؤلف، كما أثبت ماركس وانجلس، وحدة القوى الانتاجية وعلاقات الانتاج، والقوى الانتاجية هي البشر الذين ينتجون وأدوات العمل ووسائل الانتاج التي يستخدمونها في عملهم. وتحدد درجة تطور قوى الانتاج وطبيعتها الخاصة طبيعة علاقات الانتاج. فعلاقات الانتاج العبودية والاقطاعية والرأسمالية يتطابق كل منها مع مستوى معين في مسار تطور قوى الانتاج. وهذه العلاقات لم تقم بصورة عشوائية وانما قامت تحت التأثير المحدد لمستوى قوى الانتاج الذي بلغه البشر. فلم يكن ممكنا قيام علاقات انتاج رأسمالية في ظل مستوى قوى الانتاج الذي كان موجودا أو منخفضا منذ ألفي عام في عهد الاغريق. وفي ذلك العهد كانت العلاقات العبودية محتومة ثم أصبحت هذه العلاقات عتيقة وتم تجاوزها نتيجة لتقدم الانتاج ونمو القوى الانتاجية. وفي العصر الحاضر أصبحت العلاقات الرأسمالية للانتاج شيئاً عتيقا ولم تعد تتوافق مع مستوى قوى الانتاج الذي توصلت اليه الانسانية.

ان السوسيولوجيين السابقين على الماركسية لم يتمكنو أبدا من تفسير الأسباب التي أدت الى ظهور الملكية الخاصة والطبقات والدولة. لقد أقتنع أغلب هؤلاء السوسيولوجيين، في هذا الخصوص، بأن كل هذه الظواهر الاجتماعية تمثل أشياء « طبيعية » وأزلية. وقد برهن ماركس وانجلس على أن هذه الظواهر تنشأ بالضرورة عند مستوى معين من تطور قوى الانتاج الاجتماعية وعلى أن تقدم هذه القوى الانتاجية سيؤدي في النهاية الى أن تصبح الملكية الخاصة والطبقات والدولة أشياء زائدة. وهكذا فهم التاريخ الانساني بأسره،

ولأول مرة، على أنه عملية يحكم مسارها قانون واحد

لقد مهدت دراسة دور الانتاج المادي في تطور المجتمع الطريق لفهم القانون الموضوعي الذي يحكم تاريخ المجتمع فتقدم وتطور الانتاج المادي هو الذي يحدد ويعين تقدم المجتمع بوجه عام. ومن هذا يتضح أن تطور قوى الانتاج هو المعيار الأساسي للتقدم الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية التي تساعد على تطور القوى المنتجة الى الحد الأقصى هي العلاقات الأكثر تقدما لقد ظلت العلاقات الرأسمالية تقدمية لعدة قرون نتيجة لأنها هيأت الأسباب اللازمة لتطور الانتاج الى مدى أبعد بكثير مما أتاحته علاقات الانتاج الاقطاعية. أما في العصر الحاضر فان الرأسمالية تعوق تطور الانتاح الذي يمكن أن يتطور، كما تشهد بذلك تجربة البلدان الاشتراكية للانتاح التي تكفل على أحسن وجه التطور الأسرع لقوى الانتاج

وتقدم المادية التاريخية تفسيرا علميا لجماع التاريخ الانساني بوصفه عملية يحكمها قانون محدد، والتي يتحدد فيها الاختلاف الكيفي بين حقبة تاريخية معينة وحقبة أخرى وبين مرحلة من مراحل التقدم الاجتماعي ومرحلة أخرى سابقة لها، يتحدد من خلال تطور قوى الانتاج وطبيعة علاقات الانتاج القائمة. وقد أطلق ماركس وانجلس على هذه الحقبة التاريخية المختلفة كيفيا اسم **التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية**. والتشكيلات الاقتصادية الاجتماعية التي شكلت المراحل المتعاقبة في تطور الانسانية عبر التاريخ هي النظام المشاعي البدائي والمجتمع العبودي والاقطاع والرأسمالية والاشتراكية.

لقد اكتشف ماركس وانجلس الفهم المادي للتاريخ من خلال اكمالها لبنية المذهب المادي بحلها لمشكلة العلاقة بين وعي البشر ووجودهم. فاذا كان الوعي هو نتاج للمادة وانعكاسا للعالم المحيط، اذن فالوعي الاجتماعي هو نتاج وانعكاس للوجود الاجتماعي.

وأوضح ماركس أنه لا ينبغي أن نحكم على حقبة تاريخية معينة من خلال وعيها، تماما مثلما لا ينبغي أن نحكم على انسان ما من خلال ما يعتقده عن نفسه. كذلك أثبت ماركس أن الوعي الاجتماعي للبشر (أفكارهم العلمية والسياسية والدينية والأخلاقية، الخ) تتحدد تبعا لوجودهم الاجتماعي كما تمثل انعكاسا لهذا الوجود.

وعرف ماركس مفهوم «الوجود الاجتماعي»، مميزاً بوجه خاص الدافع الأساسي المحدد في أي شكل من أشكال الجماعة الانسانية، وهو أسلوب أو طريقة الحصول على وسائل الحياة. ويتساءل لينين: «بأي طريقة توصل ماركس الى هذه الفكرة الأساسية؟». وهو يجيب بقوله: «استطاع ماركس أن يقوم بذلك من خلال تمييزه للمجال الاقتصادي من بين المجالات المختلفة للحياة الاجتماعية، ومن خلال تمييزه «لعلاقات الانتاج» من بين مختلف العلاقات الاجتماعية بوصفها العنصر أو العامل الأساسي، والأولي، والمحدد لكل العلاقات الأخرى»[٢٩]

وقبل ماركس لم يميز السوسيولوجيون من بين العلاقات الاجتماعية المتنوعة والمتشابكة هذا النوع من العلاقات الأساسية والأكثر بساطة والحاسمة في الوقت ذاته. لقد بدأوا بدراسة العلاقات القانونية والسياسية وانتهوا، باكتشافهم أن منشأ بعض الأفكار والنظم السياسية ارتبط بشخصيات تاريخية محددة، انتهوا الى الاستنتاج المثالي القائل بأن مجرى التاريخ يحدده مجرى الأفكار السائدة والنظم السياسية القائمة والشخصيات البارزة التي ارتبطت بها هذه الافكار والنظم. وبين ماركس كيف يزودنا رد العلاقات الاقتصادية بمعيار موضوعي تماما لتقييم الظواهر التاريخية ولمقارنة الحقب التاريخية المختلفة واقامة روابط وثيقة فيما بينها. لقد حول الفهم المادي للتاريخ

(٢٩) Lenin, coll. works, Vol 1.P.138.

السوسيولوجيا الى علم وذلك لأنه أثبت أن البشر أنفسهم هم الذين يصنعون تاريخهم وهم الذين يخلقون علاقاتهم الاجتماعية وأنهم لا يقومون بذلك بصورة عشوائية وانما في اتساق مع الشروط المادية القائمة في الحقبة التاريخية المعينة. وفي حين أكد السوسيولوجيون الذاتيون أنه لا وجود لقوانين اجتماعية موضوعية، وفي حين زعم السوسيولوجيون الجبريون أن البشر لا يملكون أن يغيروا أي شيء في تاريخ المجتمع، كشف ماركس وانجلس الوحدة الجدلية للنشاط الانساني والشروط الموضوعية التي يحدث فيها، كما كشفا وحدة الذاتي والموضوعي في العملية التاريخية الاجتماعية ووحدة الحرية والضرورة. **ومثلما يغير الانسان الطبيعة من خلال تعرفه على قوانينها واستناده على هذه المعرفة في نشاطه العملي، كذلك يغير الانسان الحياة الاجتماعية ويحول العلاقات الاجتماعية طبقاً للقوانين الموضوعية للتطور الاجتماعي.** وبرفض النزعة الذاتية والنزعة الجبرية تسلح الماركسية الانسان بمعرفة القوانين التي تحكم تطور المجتمع. ويعزز الاستخدام العملي لتلك القوانين نجاح النشاط التحويلي (التغييري) للبشر. وهذا الوجه للموضوع لا يفهمه غالبا نقاد الفهم المادي للتاريخ، والذين يطرحون عادة الحجة التالية، فهم يقولون: لو أنك سلمت بوجود الضرورة الموضوعية وبحتمية الإشتراكية فلماذا اذن الجهود التي تبذل لتحقيقها؟ فالأحزاب لم تنشأ وتنظم لكي تنجز شيئاً هو محتوم في النهاية حتمية كسوف الشمس مثلا. ان نقاد الماركسية يرون أن الحتمية التاريخية والنشاط الهادف والواعي للبشر يستبعد كل منهما الآخر، الا أن النقطة الأساسية في المسألة **هي أن الضرورة التاريخية تختلف كيفيا عن الضرورة السائدة في عمليات الطبيعة.** فالضرورة التأريخية لا توجد بمعزل عن المجتمع وعن نشاط البشر. إنها تنشأ وتتشكل في نشاط البشر ذاته، في نشاط الفئات الاجتماعية

والطبقات المختلفة ومي تحدث أو تقوم، بطبيعة الحال، خلال ذلك النشاط. وذلك ما يظهر بوجه خاص في تطور القوى المنتجة التي تحدد طبيعة كل العلاقات الاجتماعية.

ان قوى الانتاج يخلقها البشر، تخلقها أجيال عديدة، كل منها يرث القوى المنتجة في المستوى الذي بلغته على يد الجيل السابق. والانتاج الحديث لم يكن ممكنا بدون التطور السابق للصناعة الكبيرة القائمة على الآلة. وبالتالي فان البشر ليسوا أحراراً في اختيار قوى الانتاج ومن ثم فهم ليسوا أحراراً أيضاً في اختيار علاقات الانتاج الخاصة بهم. لكن في داخل حدود علاقاتْ الانتاج المعطاة، يملك المجتمع فرصا متنوعة للاختيار. إن الضرورة التاريخية ليست شيئاً مبسطاً، بل يمكن لها أن تتطور بأشكال ووسائل ومناهج متنوعة. وذلك ما ينطبق بنفس الدرجة على التطور المقبل للمجتمع.

ان الاشتراكية هي المرحلة الجديدة والأعلى للتطور الاجتماعي والتي تأتي بطبيعة الحال لتحل محل الرأسمالية. والفهم المادي للتاريخ والتحليل المادي لقوى الانتاج ولعلاقات الانتاج والتفسير المادي لأصل الملكية الخاصة والطبقات والدولة، كل ذلك يؤدي الى القول بذلك.

الفصل الرابع
الاقتصاد السياسي الماركسي: علم قوانين انتاج وتبادل الثروة المادية من المراحل المختلفة للتطور الاجتماعي

يدرس الاقتصاد السياسي القوانين التي تحكم انتاج وتبادل الثروة المادية. وتختلف هذه القوانين باختلاف التشكيلات الاقتصادية الاجتماعية. فالقوانين الاقتصادية للرأسمالية تفترض وجود شروط مادية لم تكن موجودة في ظل النظام الاقطاعي أو في المجتمع العبودي. هذه الحقيقة، التي أثبتتها الماركسية باستخدام التناول التاريخي للتطور الاجتماعي، تفند مزاعم الاقتصاديين الغربيين حول الطبيعة الأزلية للرأسمالية وتكشف طبيعتها التاريخية المؤقتة. ومن هنا فان الموضوع الأساسي للدراسة الاقتصادية العلمية للرأسمالية هو، على حد قول ماركس، دراسة قوانين ظهور وتطور وسقوط علاقات الانتاج الرأسمالية.

ويتخذ ماركس من تناوله للسلعة، وهي «الخلية» الاقتصادية للمجتمع الرأسمالي، نقطة البداية لدراسته. لقد ظهر الانتاج السلعي قبل مجيء الرأسمالية بوقت طويل، الا أنها وفي ظل المجتمع البرجوازي فقط حدث أن تحولت لتصبح العلاقة الاقتصادية الشاملة والسائدة. فهنا، في ذلك المجتمع، يتحول كل شيء الى سلعة، وليست الأشياء، وحدها بل أن قوة العمل والقدرات والمواهب والجمال تتحول هي الأخرى الى سلع.

لقد عرفت كلاسيكيات الاقتصاد السياسي البرجوازي السلعة، ببساطة، بأنها نتاج العمل. الا أننا لو قصرنا اهتمامنا على ما يعنيه هذا التعريف فسنصل الى النتيجة القائلة بأن السلع كانت موجودة دائماً وأنها ستظل موجودة ما ظل هناك نشاط عملي أو انتاجي. وقد عارض ماركس بشدة هذه الصياغة المبسطة والمجردة للموضوع وبين ماركس أن السلعة ليست بوجه عام نتاجاً للعمل وانما هي تجسيد لشكل محدد تاريخيا من أشكال العمل. وبعبارة أخرى فان العمل في أشكاله المختلفة يخلق الأشياء التي يحتاجها البشر، على أن السلع يخلقها شكل خاص من أشكال العمل تتمثل سمته النوعية والمميزة في ازدواجيته. فهو عمل عيني ومجرد في آن معاً فالمنضدة بوصفها قيمة استعمالية محددة، أي بوصفها تلبي حاجة معينة، هي نتاج لعمل عيني، هو في هذه الحالة عمل نجار الموبيليا وهذه المنضدة نفسها، بوصفها سلعة، أي بوصفها شيئا ينطوي على القيمة وبالتالي ينطوي على قيمة تبادلية (أي قابليتها للتبادل مع سلعة أخرى) هي نتاج للعمل المجرد الذي تختفي فيه الفروق بين الألوان العديدة للنشاط العملي أو الانتاجي. وعلى ذلك فالسلعة هي نتاج لعمل عيني ومجرد في وقت واحد، وهو شكل من أشكال العمل الإنساني لم يكن موجودا دائماً فهو لا يوجد، على سبيل المثال، في اقتصاد القن الاقطاعي الذي ينتج لنفسه ولأسرته ولمالك الأرض أغلب المنتجات التي يحتاجونها، تلك المنتجات التي لا تتحول، في الأغلب الأعم، الى سلع. ان الطبيعة المزدوجة للعمل تظهر في حقبة التقسيم الاجتماعي للعمل، عندما يقدم كل منتج صنفا واحدا من السلع بل وربما قدم جزءا منه، وعندما تصبح تلبية احتياجات المنتجين ممكنة فحسب بفضل التبادل السلعي، أي بفضل تحول المنتجات الى سلع. وأوضح ماركس أيضاً أن علاقات السلعة - النقود لها طبيعة انتقالية من الوجهة التاريخية فلقد ظهرت في مرحلة

معينة في التطور التاريخي وسوف تتلاشى بالتدريج في المجتمع اللاطبقي.

ان كون غالبية السلع على اختلافها تخضع لعملية التبادل يثبت أنها تملك جميعا (رغم اختلافها) خاصية مشتركة معينة، تلك الخاصية هي قيمة السلعة، أو كمية العمل الضروري اجتماعيا التي بذلت في انتاجها ان هذه القيمة التي تنطوي عليها السلع هي التي تجعل هذا الكم المتنوع من السلع (على سبيل المثال المعادن، الملابس، اللحوم، الخ) قابلا للقياس.

وكما سبق أن أوضحنا، كانت كلاسيكيات الاقتصاد السياسي الانجليزي هي التي أرست أسس نظرية القيمة. ثم أدخل ماركس تعديلات وتصحيحات هامة على هذه النظرية. وأول هذه التعديلات توضيحه أن القيمة لا يخلقها سوى العمل الحي، أما الآلات والأدوات الأخرى، ووسائل الانتاج، والتي تمثل عملا متجسدا ماديا، فلا تخلق أية قيمة على الاطلاق. كذلك لا تخلق الحيوانات (كالحصان على سبيل المثال) التي تشارك في عملية الانتاج، لا تخلق القيمة. ان البشر هم وحدهم الذين يخلقون القيمة عن طريق نشاطهم الانتاجي المباشر. ولقد حاول الاقتصاديان الأمريكيان «ل.كيلسو» و«م. آدلر» في كتابها «البيان الرأسمالي» أن يثبتا أن القيمة تنشأ من ناحية عن قوة العمل وتنبثأ عن التكنولوجيا من ناحية أخرى. وهما يؤكدان أن الرأسمالي يحصل فقط على القيمة التي تخلقها التكنولوجيا في حين يحصل العمال على القيمة التي يخلقونها، وبالتالي فلا وجود لأي استغلال على الاطلاق.

والواقع أن هذه الحجج لا تصمد للنقد. فالعمال، وليس الرأسماليين، هم الذين ينتجون الآلات وهم الذين يستخدمونها خلال عملية الانتاج. ومع ذلك يصور كيلسو وآدلر التكنولوجيا على أنها

مصدر للقيمة مستقل عن الشعب العامل. ولم يقتصر اهتمام ماركس بعد ذلك على متابعة تطوير صياغة نظرية القيمة. لقد تمثل اسهامه الأكبر في مجال الاقتصاد السياسي في اكتشافه لقانون فائض القيمة. وهذا القانون هو حجر الزاوية في مذهب ماركس الاقتصادي برمته.

لقد سبق أن طرحت كلاسيكيات الاقتصاد السياسي الانجليزي السؤال التالي: من أي مصدر يحصل الرأسماليون على ربحهم؟ اذا كان هدا الربح يأتي نتيجة لأنهم يشترون بأسعار أقل من القيمة ويبيعون بأسعار أعلى منها. فان هذا القول لا يفسر شيئا على الاطلاق. فالنقود في هذا الحالة انتقلت من جيب الى آخر، الا أن المجموع الكلي للربح لم يزد شيئا ومن ثمة يصبح ضروريا أن نفترض أن الربح (فائض القيمة) يشأ خلال عملية الانتاج على هذا النحو طرح الاقتصاديون البرجوازيون المسألة الا أنهم لم يتمكنوا من حلها

وكان ماركس وحده هو الذي استطاع كشف لغز منشأ فائض القيمة كما أثبت، فضلاً عن ذلك، أن فائض القيمة لا يأتي على نحو يناقض قانون القيمة، بل في اتساق تام معه. وقد أوضح ماركس أن الرأسمالية تختلف عن التشكيلات السابقة في أن قوة العمل تبدو - في حالتها- حرة من الوجهة الشكلية فالبروليتاري ليس عبدا ولا قنا. وليس هناك من يجبره على العمل. الا أن البروليتاري لا يملك مصدرا آخر يكفل له البقاء بخلاف عمله. فلو أن العمال يستطيعون أن يعيشوا على الهواء، كما يقول ماركس، لما كان في مقدور أحد أن يضطرهم للعمل من أجل الرأسماليين. لكن العمال يضطرون للعمل لأنهم لا يملكون وسائل انتاج خاصة بهم. وهذه الوسائل يملكها الرأسماليون. وهكذا يتعين عليهم أن يعملوا في خدمة الرأسماليين طالما وجد النظام الرأسمالي. انهم مجبرون على الخضوع وعلى الذهاب بارادتهم الى الاستعباد. ذلك هو القهر أو الاجبار الاقتصادي والذى يقابل

الاجبار الجسدي أو الاجبار من خارج الاقتصاد، الذي كان يتعرض له العبيد أو الأقنان. وللوهلة الأولى يبدو أن العامل، وقد أجره الرأسمالي، يدخل في علاقة تعامل ارادية معه. الا أن هذا مجرد مظهر، اذ أن العامل لا يجد مخرجاً آخر أمامه. لهذا السبب فان العامل بعد أن يؤجره الرأسمالي، يتقدم للعمل، على حد قول ماركس، «مرتعبا يتقدم خطوة ثم يتراجع، مثل رجل أحضر جلده للسوق وليس أمامه ما يتوقعه سوى أن يجلد»(٣٠)

ولقد طرح الاقتصاديون البرجوازيون، عندما لاحظوا أن العامل يصطر لوضع نفسه تحت تصرف الرأسمالي، قضية سعر أو قيمة العمل. وبين ماركس أن مثل هذه الصياغة للقضية بعيدة عن الصحة تماما: فبما أن القيمة هي تجسيد للعمل، يصبح من السخف لو قيست القيمة بحجم العمل، التحدث عن قيمة العمل. فالقيمة لا يحوزها العمل وانما تحوزها قوة العمل التي يبيعها البروليتاري للرأسمالي في شروط محددة ولوقت محدد (يوم، أسبوع، الخ) والتي تخلق من القيمة قدرا يفوق ما يحصل عليه العامل من أجر ولكن، واذا كان الأمر كذلك، ألا يكون قانون القيمة - أي قانون التبادل المتكافىء للقيمة المتعادلة - قد انتهك خلال التعامل بين البروليتاري والرأسمالي نتيجة لأن العامل قد حصل على أقل مما أنتجه؟ لقد أثير هذا التساؤل أيضاً من جانب ريكاردو، الا أنه لم يتمكن من الاجابة عليه. وقدم ماركس، القيمة «الاضافية» أو فائض القيمة في هذه الحالة، والتي يحصل عليها الرأسمالي والتي لا يعني الانتاج بدونها شيئاً بالنسبة له؟ ان النقطة الأساسية هنا، كما يفسر ماركس، هي أن قوة العمل تملك مثل أي سلعة أخرى فضلا عن قيمتها قيمة استعمالية، أي القدرة على تلبية حاجة معينة وهي هنا حاجة الرأسمال، أو الرأسماليين. ان

(٣٠) Marx, capital, Vol. 1,P.176.

القيمة الاستعمالية النوعية لقوة العمل هي قدرتها على أن تنتج أكثر مما يلزم من أجل بقائها واعادة انتاجها والرأسماليون، حين يدفعون قيمة قوة العمل، يتملكون كل ماتنتجه الطبقة العاملة ويزيد عن هذه القيمة. وذلك بالتحديد هو ما يعنيه فائض القيمة.

ان قانون فائض القيمة هو القانون الأساسي الذي يحدد حركة وتطور الاقتصاد الرأسمالي. ومعدل فائض القيمة (النسبة بين اجمالي القيمة التي ينتجها العمال وذلك الجزء من القيمة الذي يزيد عن قيمة قوة العمل والذي يتملكه الرأسماليون) هو معدل الاستغلال، الذي نشأ على نحو متدرج وثابت خلال تاريخ الرأسمالية. ففي البداية عمل الرأسماليون على زيادة معدل الاستغلال باطالة يوم العمل (زيادة وقت العمل الفائض، أي ذلك الجزء من يوم العمل الذي ينتج فيه فائض القيمة). لكن نضال الطبقة العاملة المتواصل انتزع قليلا لساعات يوم العمل. وفي الوقت الحاضر يزداد معدل فائض القيمة من خلال اختزال وتقليل الجزء الضروري من يوم العمل، أي ذلك الجزء اللازم لاعادة انتاج قيمة قوة العمل. ويتم ذلك عن طريق عمليات الترشيد والتعجيل والميكنة والأتمته التي يدخلها الرأسماليون على الانتاج. وفي أي مشروع رأسمالي ينتج العامل في ساعتين أو ثلاثة قيمة توازي أجوره وفي الساعات الخمس الباقية ينتج فائض القيمة، أي يكدح من أجل الرأسمالي.

ان حججا كثيرة تساق حول امتلاك الرأسمالي لرأس المال نتيجة «لاقتصاده» و«تقشفه». وهذه الحجج زائفة وباطلة تماما فرأس المال تخلقه الطبقة العاملة وهو تراكم لفائض القيمة. والتراكم الرأسمالي هو عملية تحول فائض القيمة الى رأس مال فالطبقة العاملة تحصل في الأجور على ما تستهلكه في شكل منتجات وخدمات وملكية شخصية، في حين تحول الطبقة الرأسمالية جانبا كبيراً من فائض القيمة الى رأس

مال. ويزيد التراكم الرأسمالي الهوة القائمة بين العمل ورأس المال اتساعا ويقلل من نصيب الشعب العامل في الدخل القومي في المجتمع الرأسمالي. فنصيب الأسد في هذا الدخل يذهب للرأسماليين. ذلك هو القانون العام للتراكم الرأسمالي الذي اكتشفه ماركس.. وهذا القانون ساري المفعول حتى اليوم، رغم حقيقة أن الطبقة العاملة قد نجحت الى حد ما، من خلال نضالها العنيد، في انتزاع أجور أعلى وشروط أفضل للعمل. ان هذه الانجازات لا تغير مع ذلك من طبيعة العلاقة الأساسية بين العمل ورأس المال. فرأس المال يواصل سيطرته على العمل وامتلاكه للجانب الأكبر من كل ما تنتجه الطبقة العاملة.

ويحاول الاقتصاديون الغربيون أن يفندوا قانون التراكم الرأسمالي الذي اكتشفه ماركس وكذلك فرضيته القائلة بأن متوسط اجمالي أجور العمال لا تزيد عن قيمة قوة عملهم. وهم يحاولون أن يثبتوا من خلال الاشارة الى أن بعض العمال يتمكنون من شراء أسهم في الشركات الرأسمالية من مدخراتهم، أن هؤلاء العمال يصبحون بذلك شركاء في رأس المال.

والواقع أن هذه الحجج باطلة من أساسها. فما يسمى بأسهم الشعب لا تزيد نسبتها عن واحد في المائة من مجموع رأس المال في أكثر البلدان الرأسمالية تقدما، والتي نجحت الطبقة العاملة فيها في تحقيق شروط معيشية أفضل.

ومن الواضح تماما أن هذا العدد الضئيل للغاية من «أسهم الشعب»، والتي تملكها عادة تلك الشريحة من الطبقة العاملة المرتفعة الأجر، لا يغير في النهاية من طبيعة وضع البروليتاريا وعلاقتها بوسائل الانتاج وموقعها داخل النسق الرأسمالي لتنظم العمل. فالشركات المساهمة لا يديرها بطبيعة الحال المساهمون الصغار، وانما يديرها كبار الرأسماليين. وأسهم الشعب تمثل، في التحليل الأخير، ما

يشبه ستار دخانيا، أو نوعا من الديماغوجية الاجتماعية. ويجدر بنا أن نلاحظ أن ماركس قد توقع مثل هذه الحجج التي يسوقها المدافعون عن «رأسمالية الشعب» في الجزء الثالث من «رأس المال». فخلال تحليله للاتجاهات الرئيسية في مجرى تطور رأس المال، أوضح ماركس أن انشاء الشركات والمشاريع الاستثمارية المساهمة والتي يشارك فيها جزء معين من الشعب العامل لا يغير شيئاً من طبيعة نمط الانتاج الرأسمالي.

وفي الوقت الحاضر، يحبذ الاقتصاديون الغربيون تدبيج الأحاديث عن «انتشار رأس المال»، أي تفرقه وتوزعه بين مجموع السكان. بل ويزعم كل من كيلسو وآدلر أن كل أفراد الشعب سيصبحون، بفضل هذا «الانتشار»، رأسماليين في المستقبل. ولكن من سيعمل عندئذ في هذا «المجتمع من الرأسماليين»؟ ان الاقتصاديين الأمريكيين يؤكدان لنا أن العمال، بعد أن يصبحوا رأسماليين، لن يكفوا عن العمل. لماذا اذن لا يتحول الرأسماليون في هذه الحالة الى عمال؟ ان كيلسو وآدلر لا يقدمان أية اجابات على هذه الأسئلة.

على أن التاريخ يشهد بأن تطور الرأسمالية لا يؤدي الى «انتشار» رأس المال. فالواقع أن ما يحدث هو عملية مناقضة تماما، عملية اكتشف ماركس القوانين التي تحكم مسارها ففي مجرى الانتاج الرأسمالي الموسع، يتركز رأس المال ويتمركز وتتمثل الأسباب المؤدية لذلك في تحول فائض القيمة الى رأس المال من ناحية، وفي المنافسة التي يفترس فيها القوي الضعيف من ناحية أخرى.

ولقد تناول لينين بالدراسة، في كتابه «الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية»، تركز وتمركز رأس المال في حقبة الامبريالية، وأوضح أن عمليات التراكم الرأسمالي تلك تؤدي بصورة طبيعية الى ظهور

الاتحادات الاحتكارية العملاقة والتي يصبح القسط الأكبر من رأس المال القومي، نتيجة لقيامها، في حوزة زمرة صغيرة من كبار اصحاب الملايين. ان كيلسو وآدلر لا يستطيعان انكار هذه الحقائق. لذلك نجدهم يتحدثون عن الحاجة لقيام «ثورة رأسمالية» سلمية والتي ستنشر ملكية وسائل الانتاج بين صفوف مجموع السكان. لكن من الذي سيأخذ زمام المبادرة في هذا الصدد؟ الرأسماليون؟ لكنهم غير مستفيدين ولا معنيين بالمرة بمسألة كهذه. الطبقة العاملة؟ لكن الثورة في هذه الحالة لن تكون رأسمالية بل ثورة اشتراكية.

ورغم أن ماركس كتب «رأس المال» منذ أكثر من مائة عام قبل أن ينقده كيلسو وآدلر، الا أنه استطاع أن يستبق الاتجاهات التاريخية للتطور الرأسمالي. لقد أوضح ماركس أن المشاركة الجماعية الرأسمالية (أي تركز وتمركز رأس المال) تشكل الشرط المادي الأساسي للمشاركة الجماعية الاشتراكية (أي الثورة الاشتراكية) التي تتطور داخل الرأسمالية نفسها، فالتناقص الحاد في عدد الرأسماليين نتيجة لتمركز رأس المال واندماج الرأسماليين الصغار والمتوسطين في الاحتكارات العملاقة، وحقيقة أن رأسمالي العصر الحاضر لم يعد قادراً على ادارة الانتاج وأنه يخول لاختصاصيين أي للمديرين القيام بهذه الوظيفة، لتتحدد بذلك وظيفته الأساسية في الحصول على الربح، وتطور رأسمالية الدولة الاحتكارية.. كل ذلك يؤدي الى أن تصبح اعادة الصياغة الاشتراكية للمجتمع ضرورة ملحة من الوجهة الاقتصادية.

وهكذا يتوصل الاقتصاد السياسي لماركس، مثلما تتوصل فلسفة ماركس، الى النتيجة القائلة بأن الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية هو أمر حتمي.

الفصل الخامس
الاشتراكية العلمية: علم القوانين التي تحكم تحويل العلاقات الاجتماعية

لم يكن ممكنا بالنسبة لماركس الاكتفاء بأن يؤكد، مسلما فعل الاشتراكيون اليوتوبيون، أن النظام الاشتراكي هو الذي يتفق مع الطبيعة الانسانية، بل دلل من خلال تحليله الموضوعي للنظام الرأسمالي، على ضرورة تحويله الى نظام اشتراكي.

وقبل ظهور الماركسية بوقت طويل، توصل العديد من المفكرين البارزين الى النتيجة القائلة بأن تقسيم المجتمع الى طبقات وصراع الطبقات هما ظاهرتين لا تمثلان تطوراً وقع بالصدفة. الا أن أغلب هؤلاء المفكرين، مع ادراكهم لانقسام المجتمع الى طبقات متعارضة، كانوا يحلمون بتسوية التناقضات الطبقية والتي اعتبروها نتاجاً للافتقار الى الحكمة أو للأنانية، أو نتيجة لاخضاع جماعة أخرى. وكان ماركس وانجلس هما اللذان أثبتا أن وجود الطبقات المتعارضة المصالح في مجتمع ينبني اقتصادياً على الملكية الخاصة هو أمر حتمي. ومن هنا يصبح الصراع الطبقي قانوناً موضوعياً، وقوة دافعة هائلة للتطور الاجتماعي.

وقد درس ماركس وانجلس بالتفصيل النضال الطبقي للبروليتاريا ضد البرجوازية وأوضحا أن هذا النضال، شأنه شأن نضال الأقنان ضد السادة الاقطاعيين والكهنة، كان أمرا طبيعيا، الا أن

البروليتاريا تختلف كيفيا عن الطبقات المضطهدة والمستغلة السابقة. فهي تنتمي لمجتمع أكثر تطورا يقوم فيه انتاج اجتماعي وصناعة كبيرة مما يساعد على تبلور وتنظيم هذه الطبقة. وتجسد البروليتاريا، بوصفها طبقة لا تملك وسائل الانتاج، تجسد بوجودها ذاته النفي الثوري للأساس الاقتصادي لرأس المال، أي للملكية الخاصة لوسائل الانتاج. وذلك بالتحديد هو السبب في أن البروليتاريا هي المقاتل الأشد عنادا وتماسكا وصلابة من أجل اعادة تشكيل المجتمع على نحو اشتراكي، وفي أنها الطبقة القائدة للطبقات العاملة غير البروليتاريا في النضال ضد الاضطهاد الرأسمالي.

وفي سياق تطور الرأسمالية، عانت البروليتاريا تجاربا مريرة من الصراع الطبقي.. لقد بدأ هذا الصراع منذ فجر الرأسمالية واتخذ أشكالاً مختلفة. ففي حقبة الثورات البرجوازية خلال الفترة من القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر كانت البروليتاريا تناضل ضد أعداء أعدائها هي، أي تقاتل بجانب البرجوازية ضد العناصر الاقطاعية الحاكمة. وفيما بعد، ومع رسوخ دعائم نمط الانتاج الرأسمالي واستيلاء البرجوازية على السلطة السياسية، اتخذت حركة تحرر البروليتاريا طابعا استقلاليا أي أن البروليتاريا أخذت تنشط ضد البرجوازية، بعد أن أدركت أن تحررها الاجتماعي الخاص لن يصبح ممكناً الا بالقضاء على النظام الرأسمالي نفسه. وقد ساعد على تحقق هذا الوعي انتشار الأيديولوجية الاشتراكية العلمية التي تلخص نظرياً تجربة حركة تحرر الطبقة العاملة. وتلعب الأحزاب الشيوعية دوراً عظيم الأهمية في هذه العملية التاريخية فهي الفصائل المتقدمة للبروليتاريا والتي تنقل النظرية الاشتراكية العلمية الى حركة الطبقة العاملة التي تتطور بصورة تلقائية ومن ثم ترتفع بها الى مستوى النضال الطبقي المنظم بصورة واعية.

وبتطور النضال الطبقي للبروليتاريا في أشكال اقتصادية وسياسية وأيديولوجية، تترابط جميعها على نحو لا ينفصم. فالاضرابات الاقتصادية، والتي تمثل أحد أشكال النضال المباشر من أجل تحسين المستويات المعيشية للعمال، تحشد العمال وتجعلهم يدركون الحاجة للنضال السياسي، الذي يتمثل هدفه الأساسي في استيلاء الطبقة العاملة على السلطة، ويحرر النضال الأيديولوجي الطبقة العاملة من الآراء البرجوازية التي تسود في ظل الرأسمالية، ويساعد العمال وكل الشعب العامل على فهم الطرق والوسائل المؤدية الى التحرر الاجتماعي لكل المضطهدين والمستغلين.

والثورة الاشتراكية هي المستوى التاريخي الأعلى للنضال الطبقي البروليتاري. ويتمثل الأساس الاقتصادي للثورة الاشتراكية في التعارض القائم بين قوى الانتاج وبين علاقات الانتاج السائدة في المجتمع الرأسمالي، والتي تحولت، بعد أن كانت وسيلة لتطوير القوى المنتجة، الى قيد يعوق تطورها الا أن هذا التعارض أو التضارب الاقتصادي ليس كافيا بذاته لقيام ثورة اشتراكية. فحتى تقوم هذه الثورة لا بد من نشوء ظرف ثوري، وذلك ما يحدث عندما يتملك الطبقات المحكومة الشعور برفض نمط الحياة القديم، في حين تفقد الطبقات الحاكمة القدرة على حكم الجماهير بالأسلوب القديم. على أن الظرف الثوري ليس كافياً بذاته أيضاً لضمان نجاح الثورة. ولكي يتم ذلك لا بد من وجود «العامل الذاتي»، أي التصميم والتنظيم الثوريين للطبقة العاملة وحلفائها من الجماهير العاملة غير البروليتارية من أجل تفجير الثورة على العلاقات الرأسمالية.

وتلعب الأحزاب الشيوعية الدور القيادي في كفالة تحقيق هذا التصميم والتماسك والتنظيم الثوري للبروليتاريا وتاريخ حركة تحرر الطبقة العاملة والفلاحين في روسيا ما قبل الثورة خير شاهد على

صحة هذه الفرضيات النظرية. فعندما نشا ظرف ثوري في روسيا عام ١٩١٧ نتيجة للسياسة اللاقومية للقيصرية التي شاركت بنشاط في الحرب العالمية الأولى، قاد الحزب الشيوعي بزعامة لينين حركة الجماهير ضد الحرب الامبريالية، وحشد الشعب في ظل شعارات السلام والاطاحة بالأوتوقراطية، وقادهم أخيراً الى انتصار الثورة الاشتراكية.

وفي «البيان الشيوعي» كتب ماركس وانجلس يقولان أن «الشيوعيين» يقاتلون من أجل الوصول إلى الأهداف الحالية، من أجل تحقيق المصالح الآنية للطبقة العاملة، الا أنهم، خلال حركة الحاضر، يذودون عن ويتبنون أيضا مستقبل تلك الحركة»[٣١]

ان النضال من أجل الاشتراكية يرتبط على نحو وثيق بالنضال من أجل الديمقراطية، اذ أن البرجوازية الممسكة بالسلطة تسعى جاهدة الى قطع الطريق على المكاسب الديمقراطية للشعب، والشيوعيون هم المقاتلون السباقون ضد التمييز العنصري، وضد تقييد حق الانتخاب بالملكية أو بالتعليم أو بأي مؤهلات أخرى، وضد الاستعمار والاستعمار الجديد وكافة السياسات والأنشطة المعادية للديمقراطية.

وتتمثل القضية الأساسية لكل ثورة في قضية سلطة الدولة. ففي أي ثورة برجوازية تتمثل المسألة الأساسية في الاطاحة بسلطة (ديكتاتورية) الاقطاعيين واقامة سلطة البرجوازية. وفي الثورة الاشتراكية تصبح القضية المطروحة هي الاطاحة بدكتاتورية البرجوازية واقامة دكتاتورية الطبقة العاملة، وهي الدكتاتورية التي تقوم على التحالف بين الطبقة العاملة وكل الجماهير العاملة غير البروليتارية.

(٣١) Marx and Engels, sel. works, Vol. 1,P.60.

ان الصراع بين البروليتاريا والبرجوازية، وأيا كان الشكل الذي يتبدى فيه، هو صراع سياسي في النهاية، وصراع من أجل السلطة، وتلك مسألة لا تقبل الحل الا بالثورة. فلم يحدث أبدا أن قامت طبقة حاكمة مستغلة بالتنازل عن السلطة، والبرجوازية ليست استثناء في هذا الصدد. أما فيما يتعلق بأشكال الثورة الاشتراكية، فمن الممكن أن تتنوع تبعا للشروط التاريخية والقومية العينية، وقد ذهب ماركس وانجلس الى أن الثورة الاشتراكية قد تنجز في بعض البلدان بطريقة سلمية، أي دون وقوع حرب أهلية. وفي كتابات لينين وفي بعض الوثائق التي تتضمن برامج العديد من الأحزاب الشيوعية في العالم طورت هذه الفرضية الى مدى أبعد. وأثبتت تجربة الثورات الديمقراطية الشعبية في بلدان أوروبا الشرقية امكانية قيام ثورات اشتراكية سلمية نسبيا ان الشيوعيين لا يؤلهون القوة، انهم يعتبرون استخدام العنف الثوري ضروريا فقط بقدر ما تطلق البرجوازية العنان للحرب الأهلية.

ويؤكد نقاد الماركسية عادة أن الاعتراف بالحاجة الى ديكتاتورية البروليتاريا ينطوي على رفض للديمقراطية. والواقع أن ديكتاتورية البروليتاريا تمثل بالفعل رفضاً للديمقراطية البرجوازية، ولكنه رفض للديمقراطية البرجوازية وحدها وليس للديمقراطية بصفة عامة. ذلك أن الديمقراطية البرجوازية هي أيضاً شكل للدكتاتورية تمارسه البرجوازية (أي دكتاتورية البرجوازية)، بالضبط مثلما كانت ديمقراطية مجتمع ملاك العبيد كنقيض لأرستقراطية المجتمع العبودي - شكلا لدكتاتورية ملاك العبيد، وعلى ذلك فان علينا ألا نقيم تعارضا مجردا بين كلمتي « ديمقراطية » و« ديكتاتورية ». فباقامة مثل هذا التعارض المجرد بين الكلمتين، تصور الدكتاتورية على أنها العنف بينما تصور الديمقراطية على أنها نفي العنف.. الا أن القضية

ليست قضية دكتاتورية أفراد أو جماعات، بل دكتاتورية طبقات محددة. فدكتاتورية البرجوازية هي سيطرة الأقلية المستغِلة على الأغلبية المستغَلة. اما دكتاتورية الطبقة العاملة فهي حكم الشعب العامل بقيادة الطبقة العاملة، أفضل قطاعاته تنظيما. وعلى النقيض من الديمقراطية البرجوازية، لا تكتفي الديمقراطية الاشتراكية باعلان الحقوق المدنية للأفراد، وانما تكفل توافر هذه الحقوق ماديا، نظراً لأن المجتمع الاشتراكي لا وجود فيه لمستغلين ولأن كل السلطة تنتمي للشعب العامل. وفضلاً عن ذلك فان أجهزة الحكم في المجتمع الاشتراكي لا تتشكل بانتخاب الشعب العامل لأعضائها فحسب، بل وتتألف أيضاً من الشعب العامل نفسه، من ممثلين للطبقة العاملة والفلاحين والمثقفين.

كذلك تشمل الديمقراطية الاشتراكية مجال الانتاج، ففي أي من البلدان الديمقراطية البرجوازية نجد أن كلمة أي صاحب لأي مصنع هي القانون. أما في المجتمعات الاشتراكية فان المصانع هي ملك للشعب. وذلك هو السبب في أن كل المسائل المتعلقة بالانتاج تبت فيها الادارة بالاشتراك مع العمال وتنظيمهم الذي يمثلهم، أي النقابات.

وقد لاحظ ماركس، في «نقد برنامج جوته»، أن دكتاتورية البروليتاريا تمثل شرطاً ضرورياً خلال فترة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية. أما في المجتمع الاشتراكي حيث تقوم علاقة من التآلف والصداقة بين طبقاته - أي بين الشعب العامل في كل من المدينة والريف والذين تتلاشى الفوارق بينهم بالتدريج -فان الحاجة الى دكتاتورية البروليتاريا تتضاءل تدريجيا

ولقد برهن ماركس وانجلس على وجود اختلاف كيفي بين الاشتراكية والشيوعية، اي بين المرحلتين الرئيسيتين في التشكيلة الاجتماعية الشيوعية. فالاشتراكية هي المرحلة الأولى، أو الأدنى، من

مراحل الشيوعية والتي لم تتحرر تماما بعد من «العلامات المميزة» للنظام الرأسمالي. ويتمثل الأساس الاقتصادي للاشتراكيّة في الملكية العامة لوسائل الانتاج التي تحول دون استغلال الانسان للانسان، وتحول بالتالي دون تحقيق الكسب المادي بغير عمل. لهذا السبب كان المبدأ الأساسي في الاشتراكية هو: «من كل حسب قدرته، ولكل حسب عمله». ويساعد التطبيق السليم لهذا المبدأ على تعزيز الاهتمام المادي والمعنوي للشعب العامل برفع مستوى انتاجية العمل، وعلى مضاعفة الثروة الاجتماعية والتي يقاس نصيب كل فرد منها حسب مقدار ما بذله من عمل كما وكيفا كذلك أوضح ماركس في الوقت ذاته القصور التاريخي الذي ينطوي عليه هذا المبدأ، من حيث أنه لا يكفل تلبية احتياجات كل أفراد المجتمع بغض النظر عن حجم قدراتهم الخاصة. فالناس ليسوا متساوين من حيث قدراتهم ومهارتهم وتعليمهم، الخ، وهو ما يؤدي الى أن يحصل البعض على أكثر مما يحصل عليه البعض الآخر، الا أن هذا التفاوت في تلبية المتطلبات المادية والثقافية لا يمكن التغلب عليه في حدود المستوى الذي تبلغه القوى الانتاجية في ظل الاشتراكية. ان التطور اللاحق لقوى الانتاج هو وحده الذي سيخلق قدراً وافراً من الثروة الاجتماعية يتيح تلبية كافة المتطلبات المعتادة لكل فرد من أفراد المجتمع الى حد أكبر وأشمل. وبغض النظر عن طاقته الخاصة على العمل. عندئذ سيصبح ممكنا الانتقال من الاشتراكية الى الشيوعية ومبدؤها الأساسي هو: «من كل حسب قدرته، ولكل حسب حاجته». وسيحدث هذا الانتقال بصورة تدريجية بطبيعة الحال، وفي تواز وتطابق مع تطور قوى الانتاجي الاجتماعي في المجتمع الاشتراكي، وسوف يؤدي تطبيق المبدأ الشيوعي الى كفالة تحقق التطور الحر الشامل لكل فرد من أفراد المجتمع. وستنمو القواعد والمباديء القانونية والتى تتكفل

سلطة الدولة الآن بتحقيقها، ستنمو بالتدريج لتتحول الى مباديء، وقواعد أخلاقية. وفي هذه الظروف، والتي سيخلقها تطور المجتمع الشيوعي اللاطبقي ستتغير طبيعة الدولة، والتي تعد أجهزة القمع ملمحا أساسياً من ملامحها، لتصبح نظاما من الادارة الذاتية الشيوعية. وقد أطلق ماركس وانجلس على هذه العملية التاريخية اسم « ذبول الدولة ». وفي ذلك كتب انجلس يقول: « إن المجتمع الذي سينظم الانتاج على أساس من الارتباط الحر والمتساوي بين المنتجين، سوف يضع آلة الدولة بكاملها في المكان الذي ستصبح جزءا لا يتجزأ منه وهو متحف العاديات، الى جانب المغزل والفأس البرونزي »(٣٢)

ان نقاد الماركسية يؤكدون أن المبدأ الشيوعي (« من كل حسب قدرته ولكل حسب حاجته ») هو أمر غير قابل للتحقيق نظرا لأن حاجات أفراد المجتمع لا يمكن حصرها، في حين تتصف وسائل تلبية هذه الحاجات بالمحدودية. ولقد ذهب بعض هؤلاء النقاد الى أن امكانية تلبية الحاجات الضرورية ذاتها لأفراد المجتمع، ونتيجة لزيادة السكان على مستوى العالم، تتضاءل بدلا من أن تتزايد. والواقع أن الثورة العلمية والتكنولوجية الحديثة تفند تماما هذه الوجهات من النظر وهي تؤكد الى أبعد حد صحة الفكرة الشهيرة لماركس والقائلة بأن حجم الثروة الاجتماعية المنتجة لا يعتمد مباشرة على كمية العمل المبذول. ففي مجرى تقدم الانتاج وتطوره، يتحدد حجم هذه الثروة بصورة متزايدة تبعا لمستوى المنجزات العلمية والتكنولوجية، وتبعا لدرجة الترابط بين العلم والانتاج. وفي عصرنا الراهن انفتحت امكانات هائلة جديدة، بفضل عمليات الكهربة والأتمتة والتطبيقات التكنيكية لاكتشافات الكيمياء والسيبرنطيقا،

(٣٢) Marx and Engels, sel. works, Vol. 2,P.322.

أمام نمو القوى المنتجة.

وفي كتابات ماركس وانجلس لا نجد سوى وصف عام وموجز للملامح الأساسية المميزة للاشتراكية والشيوعية. فعلى عكس اليوتوبيين، لم يكن ممكناً، في نظر ماركس وانجلس، تقديم وصف مفصل للتنظيم الاشتراكي والشيوعي نظراً لأنهما لا يملكان أية معطيات أو بيانات عينية تتعلق بهذا المجتمع. وفي ذلك كتب لينين يقول «ليس هناك أثر لمحاولة واحدة من جانب ماركس لانشاء يوتوبيا، أو للانغماس في كتابة تخيلية عديمة الجدوى حول ما لا علم له به. لقد عالج ماركس قضية الشيوعية بنفس الطريقة التي يعالج بها عالم الطبيعة قضية تطور نوع بيولوجي جديد، على سبيل المثال، عرف يوما ما أنه نشأ بالطريقة الفلانية وأنه مر بتغير في الاتجاه المحدد كذا وكذا »(٣٣)

ولقد طورت كتابات لينين أفكار ماركس وانجلس حول الاشتراكية والشيوعية وبوجه خاص ما تعلق منها بوسائل وطرق بناء الاشتراكية. وفي فترة تاريخية وجيزة نسبيا، تمكن الاتحاد السوفييتي لا من اللحاق بالبلدان الرأسمالية المتطورة تكنيكيا واقتصادياً فحسب بل وسبق أيضاً عدداً كبيرا من هذه البلدان، وهو يحتل الآن المرتبة الثانية فيما يتعلق بالانتاج العالمي. ورغم أن تعداد السكان في الاتحاد السوفييتي لا يتجاوز ٧ بالمائة من عدد السكان في العالم، الا أنه ينتج ٢٠ بالمئة من اجمالي الانتاج الصناعي العالمي.

وعادة ما يصور نقاد الماركسية-المثل الأعلى الشيوعي على أنه تصور فج لمملكة الله على الأرض. وهم يلاحظون عادة، في لهجة نصح وتحذير، أن وجود الفردوس على الأرض هو أمر مستحيل التحقيق، وأنه لا يتاح الا في السماء الا أن الشيوعيين لا يفكرون

(٣٣) Lenin, collected works, Vol 25,P.458.

على الاطلاق في مسألة وجود الفردوس على الأرض. ففي الفردوس، وكما جاء في الانجيل، ليس هناك وجود للعمل، ولا للنضال، ولا وجود هناك للمعرفة أو الحب. لكن الشيوعية لا تفترض اختفاء كل هذه العناصر الأساسية للحياة الانسانية. بل على العكس، انها تكفل امكانية تطورها المكتمل والشامل.

ذلك أن الشيوعية تعني التطور الاجتماعي الأسرع، لا بلوغ هذا التطور الى منتهاه. وهي تضع حدا للتناقضات المتعادية لا للتناقضات بصفة عامة. وفي ظل الشيوعية أيضاً، سيظل الصراع بين القديم والجديد هو القوة الدافعة للتطور الاجتماعي

ان الفلسفة الماركسية تثبت علمياً قابلية العالم للمعرفة وامكانية انطواء النشاط الانساني على الهدف والمعنى، وهي تثبت أن للتقدم الاجتماعي قوانينه التي تحكم مساره، كما تبرهن على الضرورة الموضوعية للتحول الشيوعي للمجتمع والذي سيمحو الى الأبد استغلال الانسان للانسان ويجعل الفرد حرا حقيقة.

المحتويات

مقدمة الكتاب

في المعنى التاريخي للفلسفة الماركسية ٥

مقدمة المؤلف: ٩

الفصل الاول

ظهور الماركسية: ضرورة تاريخية موضوعية ١٥

الفصل الثاني

تبلور الماركسية ٣٩

الفصل الثالث

الفلسفة الماركسية علم القوانين العامة التي تحكم تطور الطبيعة والمجتمع والمعرفة ٥٧

الفصل الرابع

الاقتصاد السياسي الماركسي: علم قوانين انتاج وتبادل الثروة المادية من المراحل المختلفة للتطور الاجتماعي. ٧٥

الفصل الخامس

الاشتراكية العلمية: علم القوانين التي تحكم تحويل العلاقات الاجتماعية ٨٥

هذا الدفتر

ان قوة الماركسية - وهو ما ستحاول أن تثبته هذه الدراسة - تكمن اساساً في طبيعتها العلمية الأصيلة . وفي ارتباطها بالحياة الذي لا ينفصم . وبالمصالح الاساسية للبشر . وبتطور القوى المنتجة ومجمل الثقافة الانسانية . ارتباطها بالقضايا الحيوية الملحة لعصرنا الراهن . ولكي ندرك ذلك جيداً يتعين علينا أن نبدأ أولاً بدراسة الجذور التاريخية للماركسية وسوابقها المادية والروحية . وسيتعين علينا . فضلاً عن ذلك . أن نحلل تبلور مذهب ماركس وانجلس . وأن نحلل العناصر الاساسية المكونة للماركسية (الفلسفة . الاقتصاد السياسي . الاشتراكية العلمية) وتطورها وتطبيقها في شروط العصر الراهن . والدراسة التالية هي عرض موجز لهذه النقاط الرئيسية .

الثمن [illegible] ل. ل. او ما يعادلها